روايات



الخبيئـــة

محمود توفيق

عالم الأدب
للترجمة والنشر

عالم الأدب
للترجمة والنشر



الخبيئة

وهناك بين مئات الكتب التي تحتويها المكتبة العربية، والتي تضم أيضا ذخائر نفيسة بلغات أخرى، وبها نسخ نادرة متوارثة من أجداد الشابة، مكتوب عليها تواريخ بالحبر السائل تمتد إلى أواخر القرن التاسع عشر- وقعت يدي على كنزي الخاص الذي لا بد أن أخرج به بأي طريق: دفتر أزرق كبير، كان يوحي لي بمهابة الشيء الذي يخفي قيمة كبيرة مثل جبانة تشد الانتباه بطريقة غامضة فيتضح أنها أثرية.

كان يجب أن أخرج بالدفتر الأزرق؛ فقد صرتُ بعد قليل من النظر فيه متوترا، ولا أحتفل بأي عنوان آخر في المكتبة، وأنا أعرف جيدا قيمة ما يكتبه إنسان كان يكتب لنفسه ويعرف كيف يكتب، وقد قرأت بعض السطور التي أكدت لي أنني أمام تجربة إنسانية خاصة في القلق والتفكير، وغلب عليَّ الشعور بأنه ملكي، وأني جئت هنا كي أستعيده من بين أنياب صفقة بين مشترٍ خبير وأسرة حزينة ليس لها شهية للتفاوض.

الثمن: ٦ دولار
أو ما يعادلها

ISBN 978-977-6539-23-5





info@aalamaladab.com

الخبيئــة

بسم الله الرحمن الرحيم

روايات

الخبيئة

محمود توفيق





الكتـاب: الخبيئة
المؤلـف: محمود توفيق

عدد الصفحات: ٢٠٠ صفحة
سنة الطباعـة: ٢٠١٧م
بلـد الطباعـة: بيروت/ لبنان
الطبعــــة: الأولى

عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع
مؤسسة عربية تعتني بنشر النصوص المترجمة والعربية
في مجالات الثقافة العامة والأدب والعلوم الإنسانية



هاتف: 00201099938159
بريد إلكتروني: info@aalamaladab.com
القاهرة - جمهورية مصر العربية

Title: Alkhabee'ah
Editor: Mahmoud Tawfiq

Pages: 200
Year: 2017
Printed in: Beirut, Lebanon
Edition: 1

الفهرسة أثناء النشر - إعداد إدارة الشئون الفنية / دار الكتب المصرية

توفيق، محمود
الخبيئة: رواية / محمود توفيق.
القاهرة: عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع، ٢٠١٦.
٢٠٠ صفحة، ١٤،٥×٢١،٥ سم.
١- القصص العربية. أ. العنوان. ٨١٣
رقم الإيداع: ١٩٠٩٠/٢٠١٦

ISBN: 978-977-6539-23-5







المحتويات

مقدمة المحقق

هاتفني أبو هالة، أحد معارفي الكرام، الذي يعمل في شراء المكتبات القديمة، وينشر إعلاناته الورقية الصغيرة في العاصمة علىٰ جذوع الأشجار، وصناديق الكهرباء، وعند محطات الأتوبيس، والذي طالما نسيت أن أسأله ماذا يفعل علىٰ وجه التحديد من يشترون المكتبات القديمة مثله بتلك الكتب؟!

هاتفني وأخبرني بأنه ذاهب إلىٰ فيلا عتيقة تخص أسرة قبطية رفيعة، في أحد الأحياء القديمة التي تسكنها العائلات المحافظة الراقية، ويرغب في أن يصطحبني معه للنظر فيما عندهم.

وكان هذا منه في إطار سعيه الحثيث لإقناعي بالعمل معه محققًا للكتب، في دار النشر التي يحلم منذ زمن بأن ينشئها ويخصصها للتحقيق.

فهذا الرجل الطيب الذي يؤمن بي، والذي يحب أن يعيش عمره كله في عالم الكتب -رغم أنه قليل القراءة- غير قادر علىٰ

استيعاب أن كوني أديبًا لا يعني بالضرورة صلاحيتي للعمل محققًا للكتب.

ولأنني لم أستطع إقناعه بأنني لا أحب، ولا أستطيع أن أكون محققًا، ولأنه لم يكن لدي شيء أعمله؛ سرنا معًا في الطريق إلىٰ الفيلا، وكان يشعر بسعادة غامرة من وجودي معه، ويشعر بالمزيد من الثقة، رغم أني مدرك تمامًا عدم قدرتي علىٰ مساعدته هناك في تقييم ثمن الكتب، ولا أظن أن عندي قدرة علىٰ أن أتنحىٰ به جانبًا عند الناس، لأقول له إنه إزاء صفقة رائعة أو سيئة للغاية، ولن يبدو عليَّ أي نوع من الحماسة والنشاط هناك، إلَّا بخصوص الكتب التي تعلقتُ بها ورغبتُ فيها لنفسي، والتي يمكن أن ألح علىٰ أصحاب البيت وقتها علىٰ بيعها لي منفردة لو رجع صاحبي خالي الوفاض.

وقد كان البيت الذي تنمو في حديقته أشجار عتيقة تحجب بعض نوافذه، بالفعل يخص أسرة قبطية راقية متحضرة، وعرفنا من الأم التي استقبلتنا بالداخل بعد أن ذهب بنا البواب المسنُّ إليها، والتي يتضح علىٰ وجهها المترفع الوقور قسمات حزن بالغ، أن هذه المكتبة مُتوارَثَة في هذه العائلة، مِنْ أجدادها المُعلَّقة صورهم القديمة في البهو، وآلت إلىٰ بنتها الشابة التي توفيت قريبًا، والتي كانت آخر من أضاف إلىٰ هذه المكتبة الكبيرة عناوين جديدة، وكانت تحب أن تقضي عندها أوقاتًا طويلة تقلب في الكتب بنهمٍ

شديد. وأشارت إلىٰ صورة الشابة الجميلة التي توحي عيناها بالنباهة والذكاء والظرف، بِيَدٍ تشعر بالشوق والأسىٰ، وعبّرنا للأم عن تعازينا البالغة؛ وخمنت علىٰ الفور أن الأم ربما لا تحاول البيع بقدر ما تحاول التخلص من كل الأشياء التي تذكرها ببنتها، وأظن أنها طريقة متواضعة النتائج لمن طلبوا النسيان والسلوىٰ.

وهناك بين مئات الكتب التي تحتويها المكتبة العربية، والتي تضم أيضًا ذخائر نفيسة بلغات أخرىٰ، وبها نسخ نادرة مُتوارَثَة من أجداد الشابة، مكتوب عليها تواريخ بالحبر السائل تمتد إلىٰ أواخر القرن التاسع عشر- وقعت يدي علىٰ كنزي الخاص الذي لا بد أن أخرج به، بأي طريقة: دفتر أزرق كبير، كان يوحي لي بمهابة الشيء الذي يُخْفِي قيمة كبيرة، مثل جَبَّانَة تشد الانتباه بطريقة غامضة، فيتضح أنها أثرية.

دفعني الفضول لأن أفتحه، وأتصفح فيه قليلًا، وبسرعة نظرتُ في عدة صفحات مختلفة، ووجدته دفترًا خاصًا بالرَّاحِلة، كانت ماري تكتب فيه مواقف ومشاهدات تترك أثرًا فيها، وتفتح لها نوافذ التفكير في العقيدة والإيمان، بالإضافة إلىٰ تأملاتها الخاصة التي ترعرعت بغير أثر من يوميات أو ذكريات.

كان يجب أن أخرج بالدفتر الأزرق؛ فقد صرتُ بعد قليل من النظر فيه متوترًا، ولا أحتفل بأي عنوان آخر في المكتبة، وأنا أعرف جيدًا قيمة ما يكتبه إنسان كان يكتب لنفسه ويعرف كيف

يكتب، وقد قرأت بعض السطور التي أكدت لي أنني أمام تجربة إنسانية خاصة في القلق والتفكير، وغلب عليَّ الشعور بأنه ملكي، وأني جئت هنا كي أستعيده من بين أنياب صفقة بين مشترٍ خبير وأسرة حزينة ليس لها شهية للتفاوض، وأن عليَّ أن أكرمه، بصرف النظر عما قالت ماري في آخر ما كتبت، ولم أكن قد قرأته هناك، وقد لا يكون آخر ما كتبت في دفترها الأزرق معبرًا بالضرورة عن آخر ما فكرت فيه وهي ذاهبة للموت.

وقد تمت الأمور بأيسر مما توقعت، وشكرني صاحبي علىٰ المجهود الرائع، رغم أني لم أكن أتحرك من حوله وأشرد كمن يدعي تقليب الأمور، إلَّا من أجل ألَّا يشعر باهتمامي بشيء واحد هو الدفتر الأزرق. وحمل الكتب بسعر رضي به تمامًا، وأنا رضيت بالدفتر، الذي كان يمكن أن يتحول إلىٰ قراطيس لب، أو يوقد به في مستودع لإعداد الفول للمطاعم، رضيتُ به وأنا أظن أنه ليس عليَّ إلَّا أن أقرأه وأحتفظ به؛ ولم أكن أعرف أنني سأقوم بالتحقيق، ولكن ليس علىٰ مراد أبي هالة، ولا تحت مظلة دار نشره التي لا يزال يحلم بها؛ بل بتحقيق نسخة عصرية لا يعلم بها أحد، ولم تكن تتوقع صاحبتها المتوفاة أن ترىٰ عباراتها الشمس.

وقد حققتُه بأن حافظت علىٰ الفصحىٰ التي كانتْ تلتزم بها حينًا وتتركها حينًا، وتركتُ كل ما يخص حياتها الشخصية، وما لا فائدة من ذكره، وعالجتُ التكرار الذي يميل له من يخاطب نفسه

وقد لا يتحمله القارئ، وحافظتُ علىٰ لغة يفهمها الناس عمومًا بغير أن يكون لديهم علم بالمصطلحات الكنسية واللاهوتية حتىٰ لا أضطر للشرح، وجعلتُ الناس الذين تذكرهم مجاهيل؛ حفظًا للروح الشخصية لكتابتها واحترامًا للخصوصية.

وهكذا كان هذا الكتاب من تلك الخبيئة النابضة التي بقيت من بعد صاحبتها التي غيَّبها الموت.

المحقق

السبت ٢٠ أغسطس سنة ٢٠١٦م

الصَّلعاء

رأيت في الطريق وأنا أقود السيارة ذلك الرجل المائل للطول الذي يحمل علىٰ ما يبدو رضيعًا ملفوفًا، كان يقف عند المطب متوترًا ملهوفًا وهو ينظر للطريق كأنه ينتظرني أنا، كأنه يعرف أني سأمر من هنا، هذا هو الشعور الغامض الذي غمرني في لحظات، الشعور المباغت والمربك بأنني مسيَّرة إليه، كحمامة فقدت وعيها تهوي إلىٰ الأرض رغمًا عنها. لما اقتربت من المطب وهدَّأت سرعتي، وبدا لي فعلًا أنه شاب يحمل رضيعًا علىٰ يديه؛ حمل رضيعه علىٰ يد واحدة، وأشار إليَّ بجنون وبرجاء لا يمكن مقاومته، أنزلت نصف الزجاج وأنا في كامل ذعري وتعاطفي مع هذا الذي تعصف به أزمة عنيفة، صرخ فيَّ بكل استعطاف: أقبِّل يدك واحمليني إلىٰ الطبيب، بنتي تموت مني، بنتي تموت مني، عيادته هناك في شارع قريب علىٰ اليمين. أشرت له علىٰ الفور بالركوب، ومسحت عن وجهي الرذاذ الذي تطاير من فمه، فركب

وهو يشكرني بأنفاس متلاحقة ويدعو لي بالنجاة. وأخذ يميل كل قليل علىٰ رضيعته في لفافتها ويقبِّلها ويحثها علىٰ الصبر، وألَّا تستسلم للموت، حتىٰ مزَّق فؤادي.

أسرعت حتىٰ أنقذ الرضيعة المسكينة من الموت، وصوتي محبوس من الهلع والتأثر لا أملك حتىٰ أن أسأله عما أصابها. ودخلت في الشارع الجانبي الواسع المترب، الذي تشغله في بدايته عمارات حديثة البناء مستوىٰ تشطيبها فوق المتوسط، ثم إن الأمر كما لو كان القلق قد أصابني بسهو فلم أشعر بالوقت والمسافة، لقد تغير ملمح الشارع بالبيوت القديمة، كأن هذا حدث فجأة، لا أعرف إن كان بعد دخولي الشارع بأمتار قليلة أم أكثر من ذلك كثيرًا؟ لا أعرف كيف غفلت عن الإحساس بما حولي بسبب التوتر؟ ولكن الأمر بدا لي كما لو كنت أقرأ رواية وقد انعطفت مجرياتها انعطافًا حادًّا، فعجزت أن أخمن إن كان هذا بسبب غرابتها أم بسبب انفراط أوراق غير قليلة من منتصفها. تعجَّبت من أن تكون هناك عيادة لطبيب ماهر في هذا الجزء الكئيب من الشارع، وربما بان هذا في ملامح وجهي، أو في انخفاض سرعتي الذي دل علىٰ تراجع حماستي؛ المهم أنه قرأ أفكاري وطمأنني بأن عيادة الطبيب بعد قليل، وهو طبيب بارع عالج كل أطفال العائلة، وقد عالجه هو شخصيًا في صغره من الجفاف، فاكتسبت بعض الطمأنينة في سيري، حتىٰ بعد أن بدأ الانهيار الثاني في المعالم من

حولي، وبسبب نفس السهو السحري العجيب، الذي يفقدني تحت تأثير القلق أي شعور بالمسافة والوقت؛ فلقد لاحظت فجأة أن البيوت تتباعد علىٰ الجانبين قليلًا عن بعضها البعض، واتخذتْ هيئة أحقر، وفصل بينها خرابات بها تلال من الزبالة والأنقاض، وأراض فضاء يكسوها التراب، وحقول صغيرة مخنوقة بين البيوت والخرابات والزرائب لا أحد يحرث فيها، كأن فلاحيها ماتوا جميعًا اليوم في بيوتهم في أثناء القيلولة، كل هذا يمر بي وأنا مسرعة، ولم يكن هناك من الأحياء وقتها في هذا النهار سوىٰ أنا وهو ورضيعته، وبعض الكلاب الهائمة الهزيلة التي تطارد القراد في فرائها، وبدا لي كما لو كان شيء لعين سيحدث هنا تنبئ به المعالم المضطربة.

في وسط هذا الهدوء المشؤوم في هذه المنطقة النائية العابسة، كان الجزع قد بدأ يتسرَّب إليَّ بدلًا منه؛ إذ بدأ جزعه علىٰ ابنته يقل، وقد كان هذا الجزع أنيسي الوحيد في خلوتي معه. وما هي إلَّا لحظات حتىٰ لم يعد به أي جزع، هكذا وجدته عندما نظرت إليه في المرآة وكان إلىٰ حد بعيد جامدًا متأهبًا لأمر ما غاية التأهب، قلبي حدثني بذلك. ولقد كان صوته الذي يصبِّرها ويطلب منها البقاء علىٰ قيد الحياة يعوِّض ويخفي عني غياب صوتها. لقد لاحظت الآن أنها لا تبكي، ولا تئن، فهل ماتت في سهوي الذي لا أعرف إن كان قد كان للحظات أم طال لدقائق؟ هل قبل موتها

وأعطاه الرب صبرًا في سهوي، أم ما زال تائهًا غير قادر على التصديق؟ أم كان صوتها غائبًا منذ البداية وسهوت عن غيابه، وبِذا أكون مجرد شابة تعيسة الحظ توقفت لتلتقط من الطريق رجلًا يحمل رضيعته الميتة وقد أصابته لوثة ظنَّ معها أنه ذاهب لإنقاذها؟

لقد شعرت بالهول الذي يمكن أن تشعر به حمامة فاقت لسقوطها في الأمتار القليلة قبيل الارتطام؛ وكنت أشعر بدبيب مأساة خاصة، لا أعرف لها أية تفاصيل، أما الشاب، فجاء في هذه اللحظات مغايرًا لأي فكرة وحشية، لقد كان هادئًا تمامًا مثل المنومين مغناطيسيًا، أو كأبطال الكوابيس الذين لا يخلون رغم بطشهم من الوداعة، لقد فتح الشاب القاسي الملامح زجاج السيارة لآخره، وشم الهواء حتى ملأ به صدره، أخذ هذا النفس العميق بطريقة صوفية آسرة، وبكل خفةٍ ألقى برضيعته.

ضغطت بأقصى ما عندي على الفرامل وأنا أصرخ صرخة واحدة، وكاد وجهي يرتطم بالمقود. لم تكن الصرخة مدوية، كانت أقل مما توقعت، من هول الصدمة كانت ملامح الصراخ أطغى من الصرخة نفسها. ورغم ضعفها أصابتني بالطنين، وقلت بأنفاس متقطعة وأنا لا أكاد أسمع نفسي من أثر الصرخة المبتورة على أذنيَّ: البنت . . البنت . . حرام عليك.

قلت ذلك بغير أن أنظر إليه في المرآة، كنت لا أملك القدرة على أن أراه، لقد ذقت القهر في لحظة واحدة، وشعرت أن هذا

المجنون الهادئ يشل قدرتي علىٰ الصراخ، علىٰ الهرب، علىٰ اتخاذ أي قرار؛ إنه يفقدني كل شيء، لم أعد أشعر بأني أملك السيارة، أو أملك ثيابي، أو أملك قراري، أو أملك نفسي. وكان عنقي يهتز من الاضطراب، كنت أعي جيدًا معنىٰ أن عنقي في متناول رجل مجنون ألقىٰ برضيعته بكل هدوء، يمكنه ببساطة أن يطبق عليه من الخلف، ويجزّه بغير أي سبب. استجمعت شيئًا يسيرًا من عزيمتي، ورجوته بصوت مذعور ومستعطِف وضعيف أن ينزل ويحمل ابنته حيةً كانت أو ميتة، ثم قلت: لو سمحت. وبكيت، بدموع قليلة ساخنة، فأمرني بهدوء ووعيد أن أمضي وأدعها، فعرضت عليه أن أنزل أنا وألتقطها؛ وكنت قد فكرت في أن أنزل وأطلق ساقي للريح، إن كان لهذا اليوم ريح. وكنت حتىٰ أخشىٰ أن تخونني ساقاي، وأعجز عن الجري، فأقع علىٰ الأرض فور خروجي من السيارة. وشعرت أن عليَّ في ساعة النحس تلك مهمة رفيعة يجب أن أؤديها، وهي ألَّا أصاب بالإغماء من شدة الخوف؛ لذا كنت أتجنب فعل أي شيء قد يؤدي لانفجار غضبه نحوي، فيزداد خوفي عن هذا الحد الذي يغمرني، فأذهب في الإغماء.

رفض أن أنزل، وسكت قليلًا ثم فجَّر مفاجأته التي فعلًا صارت مقاومة الإغماء بعد سماعها فوق طاقتي، قال إن ما رماه مجرد دمية غشَّني بها، ماذا قلت؟! دمية خدعتك بها. شعرت

لحظتها كما لو كنت أخذت لكمة عنيفة علىٰ قلبي، وتداعت علىٰ مخيلتي ذكريات طفولتي عندما كانت أمي توصيني بنفسي، وألَّا أسمح لأحد غريب بأن يلمسني، تذكرت ذلك الحرص في عينيها وهي تشرح لي وتشير لجسدي وأزراري التي لا يجب أن يقترب منها أحد، فصعب عليَّ أن يتم الإيقاع بي بعد أن مضىٰ زمن التوصية، فحدثت نفسي بصوت مسموع كأني أندب نفسي وأنا أقول: ما الذي فعل بي ذلك؟! فقال بهدوئه الذي يصل إلىٰ حد البلادة: الشفقة.

بسَّط لي الأمر وقال: إنه يرغب فيما معي من ذهب ونقود وجوالات لا أكثر، ولا يرغب حتىٰ في السيارة، ففرحت وقلت له خذ ذهبي ونقودي والجوالين وانزل، فقال إن هذا كل ما سيحدث، ولكنه سيفعل ذلك عند دراجة نارية ركنها قريبًا من هنا، حتىٰ يفر بالدراجة. وكنت أريد أن أصدِّق فصدَّقت، بل وكنت في قرارة نفسي علىٰ استعداد لأن أترك له السيارة علىٰ أن يتركني، ويتركني في مكان يمكنني أن أجد فيه مواصلة، ولكن قررت أن أقدم هذا التنازل وقت اللزوم. وكنت مندهشة لكوني لم أتعرض للإغماء حتىٰ ذلك الوقت.

قال إننا سننزل بعد وقت قليل عند مخزن صغير، وقدَّم لي كيسًا وأمرني أن أضع فيه في أثناء قيادتي كل ما معي، حتىٰ ينتهي هذا الأمر كله وأرحل لحال سبيلي، وأي صراخ سيؤدي لذبحي

مثل دجاجة، فقلت له، وبغير استعطاف هذه المرة، وبغير دموع، قلت: إني راضية بأن يأخذ كل هذا علىٰ أن يتركني أعود لأهلي، أعود لهم سالمة وسليمة كما خرجت، وهدَّأت السرعة، وبدأت في وضع غنائمه بالكيس، وعنَّ لي أن أظل محتفظة بقرطي (حلقي) الصغير، لا أعلم لم فعلت ذلك رغم صعوبة الموقف ورخص ثمنه قياسًا بالذهب الذي خلعت والخاتم الألماس، ربما شعرت بأن هذا يضفي عليَّ إحساسًا بالمقاومة أو الاعتراض، حتىٰ سلَّمته الكيس.

بعد قليل كنا قد وصلنا عند بيت بحالة مزرية علىٰ الطوب الأحمر، من طابق واحد، وشقة واحدة في الطابق، كان بابه الحديد المرفوع عن العتبة شبرًا يعلوه الصدأ والملح كأنه من سفينة غارقة، وأمرني بركن السيارة عند البيت حتىٰ يطمئن لدراجته النارية، ولم يكن هناك أي دراجة نارية عنده، فبادر لطمأنتي بأن الدراجة بالداخل، سيراها إن كانت ستعمل أم لا، وبالفعل ركنت السيارة رغم أني شعرت أنه كاذب، وأنه لا توجد أي دراجة نارية، ولكنه قد وصل من السيطرة للدرجة التي لا تجعله يبذل أقصىٰ ما عنده للإقناع، وكنت وقتها بدأت أتبصَّر كوني شابة تقع في دائرة خطر معتمة، خطر الاغتصاب. ثم قال بلهجة حاول أن تبدو طيبة، إنه لن يضرني، وكذلك لن يأخذ السيارة، فهو غير مسجل وليس لديه سوابق، ولا يرغب في أن يكون لديه سوابق، فقط هو يريد أن

يأخذ مني ما يمكن أن أطلب فيه العوض من الله، وكنت أرغب في تصديقه في أنه لا يريد أكثر مما أخذ، فشجَّعته وقلت له وأنا مسامحة فيما أخذت.

كنت أنتظر ذلك الجلاء، لحظة الإفراج، لحظة أن يضع قدميه خارج السيارة ويمد قامته فأنطلق. ها هو يفتح الباب، ويبتسم لي في المرآة وأنا أهرب من رؤيته، ويقول ستعودين سالمة وسليمة، وأوضحت له قيمة الذهب والخاتم الألماس، ونصحته بألاَّ يفرط في المصوغات بثمن بخس؛ وكان غرضي أن يشعر بالرضا عن الغنيمة وهو يرحل صارفًا نظره عني وعن السيارة، وكنت أشعر أنني محظوظة جدًّا، أو أن هناك شيئًا شديد الغباء في مجريات الأمور؛ فليس من المعقول أن يتركني هكذا ويترك السيارة، وأحببت أن أفسر الأمر بأنه شخص قليل الخبرة، وغير مغرق في الشر؛ لأن هذا ما كنت أرجوه. ولمَّا فتح الباب عن آخره، وأنزل إحدىٰ قدميه خارج السيارة بتثاقل، كان الهواء الذي اندفع في السيارة أحسن ما شممت من الهواء في حياتي. وفي أثناء هذه اللحظات المنعشة، التي كان يرقص فيها قلبي فرحًا، وكنت أكتم ابتهاجي حتىٰ لا يستفزه، شعرت فجأة كما لو كان حجر قد أصاب مؤخرة رأسي، حتىٰ لم أعد أرىٰ شيئًا. غرقت في الظلام، وكانت هناك دوامة لزجة ودافئة تزحف حتىٰ غمرتني، كان الإغماء في البدء يعطيني وضعًا جنينيًا، كأني في رحم، أو كأن ثعبانًا بلعني كلِّي دون

أن يكسر لي عظمة، فعشت في جوفه محاطةً بالماء واللُّزوجة، ثم إن أشياء كالخفافيش أخذت تهجم عليَّ وترتد فجأة، وصار الإغماء ككهفٍ رطب قديم، تعيش فيه كائنات هادئة مجنونة منذ آلاف السنين، وفي هذا الكهف كنت أشعر أن بعض هذه الكائنات المجنونة تمضي بي وأنا أجر قدميَّ بينها، ونحن في ضباب مكثف من البخار، وأنا أشم روائح تبعث على الخدر، روائح الطين والتراب، وما علق بالأحجار والأشجار من روائح الوحوش التي عبرت بعد أن حكَّت جلودها، وكذلك كان هناك شيء لطيف كعبق الجذور التي كشفها المطر.

كانت قبضة يد المجرم قد هوت على مؤخرة رأسي، فوجدت نفسي داخل هذا المخزن الصغير ضعيفِ الإضاءة الذي لا هواء فيه، بين صفائح البتومين ومواسير الحديد الزهر، والخيش المقطرن، حسب ما شاهدت بعد أن أفقت واعتادت عيناي على الضوء الضعيف. وكانت رائحة المكان الموحش مخالفة للروائح الطبيعية التي استغرقت فيها في الغيبوبة، كان مكانًا برائحة الصدمة، بالرائحة العفنة للإيقاع بي.

كان وعيي قد عاد لي وهو يضعني على الأرض ويسند رأسي على كومة من الخيش المقطرن وأنا مغمضة العينين، كنت أشعر بذلك بشكل مشوَّش كشعور من حملوه وغيروا موضع رأسه وهو نائم، ثم فتحت عيني المتثاقلتين، فضحك عندما أفقت متمتعًا بأنه

خدعني مرة أخرىٰ، كما لو كان الخداع نفسه هو نزوته الأساسية.

ووقتها عرفت أنني سأفقد شرفي، سأصير في مساء الغد، وإن تركني حية، مادة مشاهدة يسهر عليها الناس أمام أحد برامج الفضائيات، ويغمرهم التعاطف والأسىٰ تجاه هذه المسكينة المنخرطة في البكاء التي عتَّم المخرج وجهها حفاظًا علىٰ السمعة. ما تخيلت أن أكون ضحية اغتصاب أبدًا، كان الأمر أبعد من الخيال، ولكنه الآن قريب جدًّا.

قلت له بلسان ثقيل إنه لم يف بوعده، فتحجج بأنه استخسر أن يتركني وهو لم يعرف أنثىٰ مثلي في النضارة والأناقة والرقي، وهو يرغب في أن يشعر لبعض الوقت أننا صاحبان، وأكد مرة أخرىٰ بأنني سأخرج بنتًا كما دخلت، وأنه لا يرضىٰ لي التدمير، وسآخذ العربة معي، وأذهب وأنسىٰ ما حدث ولا أحدِّث به أحدًا. ولم يكن تصديقي أن أعود بشرفي والسيارة أو عدم تصديقي فارقًا، فقد كنت إلىٰ هذه اللحظة غير قادرة علىٰ الوقوف علىٰ قدميَّ، فلا أملك حتىٰ أن أنتحر.

وهالني أن عرَّىٰ نصفه العلوي في لحظة، ووقف متوددًا ومستعرضًا، يحدوه الأمل في أن يثير إعجابي. كان يبدو مختالًا بعرض كتفيه ونحول خصره، أما أنا فكما كنت أشعر أن من واجبي أن لا أصاب بالإغماء، صرت أشعر بأن واجبي الآن أن يبدو منفرًا جدًّا؛ لذا لم أرَ في خيلائه إلَّا وحمة سوداء قبيحة في حجم بلحة،

وسمه الله بها علىٰ عنقه الطويل. ثم اتجه ناحية باب حجرة وفتحه وهو يغازلني وهو في هذه الحالة من الغرور، ليعد لنا فرشة في ركن كما قال.

إنني علىٰ مشارف أصعب كابوس يمكن أن يواجهني كأنثىٰ، سأقتطف علىٰ الفرشة التي يعدها في الحجرة، كأي ثمرة رخيصة ومتاحة، سأنتهك في العتمة وأترك للعار والمهانة، ألملم بعدها جسدي المنهار، ألملمه وأنا في خجل من مواضع جسدي التي تشعر بالتلوث والشناعة، في خجل من مواضعي التي تلومني علىٰ أني لم أنتبه لها كما يجب حتىٰ وجدت نفسي تحت المواسير، وحيدة باكية تمسح بالقش ما علق بجسدها المرتعش من عرق المجرم ولعابه ودنسه.

وكما يكشف البرق الطرقَ والمعالم المخفية لشخص عابر في الظلام، في برق هذه الأزمة الخاطف رأيت الآن ما كان معتمًا في قلبي وضميري، إنني الآن أعرف ربي، في برق هذه الأزمة، أطلب النجاة ممن طلب اليهود منه النجاة وهم خارجون من مصر وفرعون وجيشه من خلفهم، وقد كان هذا قبل الميلاد. أطلب النجاة، ممن نجّىٰ دانيال النبي من جبِّ الأسود، وقد كان هذا قبل الميلاد. أطلب النجاة ممن طلبت منه النجاةَ أولُ امرأة كانت عرضةً للاغتصاب، وقد كان هذا حتمًا قبل ميلاد المسيح بأزمنة بعيدة. أطلب النجاةَ ممن طلب منه المسيح ذاته أن يعبر عنه هذه الكأس،

وقال له: (نَجِّنِي مِنْ هَذِهِ السَّاعَة) [يوحنا ١٢: ٢٧]؛ الذي كان إلهًا من قبل المسيح، وظل إلهًا وحده علىٰ لسان المسيح، إنني الآن يا رب أشهد بأنك آخر، وأنك فوق الكل، وأنه لا أحد يقاسمك شأن الألوهية، فنجِّني بهذا الاعتراف من هذه الشدَّة، نجني، نجني.

وأنا غائبة في توسلاتي التي انهمرت داخلي وأخذتني فلا أعرف كم من الوقت امتدت، سمعت شهقة واحدة، كان لها علىٰ نفسي وقع الصوت الآسر لفتح الباب للسجين، ووجدتني أنهض من المفاجأة مستندة علىٰ الخيش، وأقترب من الباب لأتلصص عليه، تحملني ساقان ضعيفتان مهتزتان، وأشعر بالدوار، كما لو كنت حيوانًا ولد للتو، شممت رائحة اشتياط، سعدت بها لأن قلبي قد امتلأ بشرَىٰ بأنه تعرض لصعق كهربائي. وأخذت أدخل وجهي عبر الباب شيئًا فشيئا، ببطء وحذر شديدين، أخاف أن أجده في وجهي مبتسمًا ساخرًا. ووجدته أخيرًا في ركنه بغير حراك، بطرف الحجرة الواسعة، مُلقًىٰ علىٰ الأرض ووجهه علىٰ ماسورة من مواسير الحديد الزهر، لا أعرف إن كان ميتًا أم مغشيًا عليه. ودبَّ في قلبي الذعر أن يمتد التيار الكهربي تحت قدميَّ، إن كان قد صعقه تيار، فأخذت بسرعة كيس حاجاتي من سترته التي علقها بالصالة علىٰ ماسورة، هربت إلىٰ الباب فوجدته مغلقًا، فقفزت بسرعة من نافذة الحمام إلىٰ المنوَر وقد تعافيت من وهني

كثيرًا، تحت تأثير الأمل، وتحت تأثير الفزع من أن يلحق بي. وفتحت باب المنور الخشبي الواطئ المربوط بالسلك، وما زلت أخشىٰ من وصول الكهرباء إليَّ أو وصوله، وفتحت باب البيت الصدئ المغلق بالمزلاج، وفتحت سيارتي، وارتبكت كثيرًا حتىٰ وضعت مفتاحها؛ بسبب الخوف من أن يخرج لي من الباب مثل الشبح ينزف دمًا من جبهته، ويأخذني من شعري إلىٰ وكره اللعين. وانطلقت ذاهلة، فرحة، مرتبكة، وناقمة.

بعد قليل كنت أشعر بالغيظ وأنا أضحك علىٰ قافلة من العربات الكارو مررت بها تحمل أثاث عروس يتقدمها رجال بالمزمار ورجال يرقصون بالعصي، ثم اغتظت وأنا أضحك من رجل خرج من بيته في قمة الطرب في جلبابه الكموني، يسعل ويدلق ماء المرطبان الزجاجي للجوزة التي يدخن عليها، ثم اغتظت وضحكت من رجل قوي البنية كالمصارعين كان يطارد ورقة هامة طارت منه في الطريق؛ أشعر بالغيظ من كل هؤلاء الذين لم يظهروا في الوقت المناسب. وتمنيت لو كان كل ما رأيت هو فيلم سوداوي مثير شاهدته في قاعة سينما متواضعة تم إنشاؤها بالجهود الذاتية علىٰ أطراف قرية. ولكنني وجدتها منطرحة علىٰ وجهها في الطريق كما انطرح علىٰ وجهه صاحبها الحثالة، دمية صلعاء في منتهىٰ الخبث والتواطؤ، انتظرتني علىٰ التراب، لتذكرني للأبد بما كان، وبما أقررت به تحت تأثير الهلع، وشعرت أنني أحملها معي مجبرةً

لا أملك أن أحبها ولا أملك أن ألقيها؛ إنها إلىٰ الآن منغصة جدًّا، كالحقيقة.

أنا أتهرَّب دائمًا من مواجهة ما اعترفت لله به في تضرعاتي للنجاة، وما غسلت يدي منه في إناء المناجاة، غير أني خالفت تهربي بهذه السطور في دفتري، وإني أعض الحروف وأنا أكتب وحروفي تعضني، وأتمنىٰ لو شطبت ما قلت. وسواء كتبت أو محوت، تبقىٰ الحقيقة أنه لا يمكنني إلىٰ الآن إعادة الأشياء في صدري كما كانت، لا شيء يعود كما كان، مثلما أنه لا يمكن إعادة هذه الدمية رضيعة.

جدتي الآن لا تعبد الله

تعطَّلت بنا السيارة الجيب في أثناء رحلة العودة، في وقت متأخر من الليل، حتىٰ صارت مثل سلحفاة تحتضر، وسرنا بها بصعوبة وببطءٍ شديد علىٰ طريق جانبي غير ممهد، ثم اضطررنا لدفعها، نجمع بين التذمُّر وطلب العون السماوي واللهاث، وقد صبغنا البدر وصبغ الفراغ من حولنا بلون أزرق مهيب، حتىٰ شعرت أننا نلهث داخل حلم جماعي للأسرة. وبعد أن نال منا الجهد، وقد حدث هذا بسرعة، ظهر لنا فجأة مخلِّص بسيط ضامر الجسد والوجه، كأنه خرج من اللاشيء، يرتدي جلبابًا حائل اللون، وعلىٰ رأسه طاقية زيتية من الصوف، وله رقبة طويلة وحنجرة بارزة، ويبدو في نحافته وزرقة الكون التي تغمره، وصوته المطمئن الخالي من عناء الحياة، كأنه مجرد ميت يتولىٰ منذ عصور سحيقة قيادة تلك العربة التي يجرها حصان هزيل يطارد الذباب جرحًا داميًا في جنبه، ونزل بحياء وهدوء كأنه ينزل داخل حلم، والريح تضرب

ثوبه، وربط عربتنا إلىٰ عربته ربطًا محكمًا وعلىٰ وجهه شيء كالامتنان كأننا نحن الذين سنجرُّه من خلفنا.

لا أنسىٰ أن والدي سأله مبتسمًا عن اسمه وهو يوثق الحبل بين العربتين، فكان (رمضان)، أي مسلم، علىٰ غير ما تمنَّىٰ والدي. أغلق والدي عينيه لجزء من الثانية، كما يفعل طير ناعس، هذا الغلق الذي يدل علىٰ شيء من خيبة التوقُّع، لم يكن أبي يرفض أن يغيثه مسلم؛ بل كان يتمنىٰ، وبصفة خاصة في حضرة هذا الأزرق المثير للخيالات الإيمانية البديعة، أن يغيثه مسيحي؛ فنحن، كأقلية، ننظر للالتقاء بمسيحي مصادفة، وخصوصًا في الحالات التي تتطلَّب المساعدة، باعتباره إشارة، شفرة، تلميحًا إلهيًا، تحية سماوية، لكن جاءنا رمضان، مما يؤكد أن هذه الانفراجة لا إلهام لها من نوع خاص.

لكننا أيضًا ككل البشر، نتمتع بشيء من اليقظة حتىٰ داخل أسعد الأحلام، فقد كنا مثلًا علىٰ مضض من إصرار الرجل علىٰ السير دون أن يخبرنا عن خطته بشأن بياتنا في هذه البلدة البعيدة من بلدات محافظة البحر الأحمر، فقد فهمنا من عدم إفصاحه أنه اختار أن يضيِّفنا عنده، حيث قد لا نجد عنده ما نضع عليه أجسادنا وننام إلَّا كومة من التبن، وهذا متعب نفسيًا، كان (رمضان) أو (لوقا).

وكانت جدتي تتلفت حولها من داخل السيارة التي ترتجُّ علىٰ الطريق غير الممهد، تتلفت بعين فضولية، كعين رجل تحمله عربة

إلىٰ السجن يحاول أن يملأ عينيه بتفاصيل مبعثرة للحياة الحرَّة قبل أن يُحرَم منها، كانت تدقق في أبواب البيوت القليلة المتباعدة نوعًا ما، وكنت أعرف أنها تفتِّش، ربما تجد صلبانًا مشكَّلة من الحديد هنا أو هناك، أو صورة من خلف نافذة مفتوحة لأحد الآباء تحيط برأسه هالة من النور، أو (مار جرجس) وهو يطعن التنين، غير أننا لم نمر بشيء من هذا؛ مما يعني أننا نسير في اتجاه الحل، ولكنه الحل الذي لا علاقة له بظهور المسيحي للمسيحيين في الوقت المناسب.

وأخذنا نصبر أنفسنا علىٰ ليلة والسلام سنبيت فيها عنده، حتىٰ أوصلنا للبيت الواسع الذي يوحي بأن صاحبه علىٰ درجة من السعة، حيث دعانا صاحب البيت المحنك والمتفحِّص للدخول، وكان علىٰ مستوىٰ من الترحيب الجيد الذي رفع عنا الحرج، وأظن أن مرجع ذلك الإقبال الطيب علينا هو مستوىٰ عربتنا الجيب التي تعطلت بنا، التي فهم منها أنه يستضيف قبل أي شيء أسرة قاهرية راقية. ووعدنا بأن يأتي بميكانيكي متمرس في الصباح الباكر، قال عنه إنه يعمل في شركة تعدين أو مناجم أو شيء من هذا القبيل.

زوجة الرجل التي استقبلتنا كانت امرأة نظيفة بشوشة، وشديدة النشاط، وغير متعلمة، استقبلتنا بحفاوة بالغة وابتسامة لا تفارق الوجه، واعتنت بنا كثيرًا، كأنها تعاني من ندرة الضيوف في هذه البلدة البعيدة قليلة السكان، وأصرت علىٰ أن تطعمنا حمامًا محشيًا

علىٰ العشاء، وحكت لنا حكايات بسيطة عن حياتها النقية البريئة، وزواجها وهي في الثالثة عشرة، وأطلعتنا بكل حماسة علىٰ شيء من جهاز ابنتها العروس.

وهي امرأة بالفعل بسيطة وساذجة سذاجة تدفع الآخرين لحبها واستظرافها منذ اللقاء الأول، ويبدو أنها لم تخرج من تلك البلدة أبدًا، ولم يسكن بجوارها مسيحيون طيلة حياتها، لا تعرف عنهم شيئًا تقريبًا، فعلىٰ الرغم من أنه اتضح لها منذ البدء أننا مسيحيون، إلَّا أنها بعد أن دعتني لمشاهدة التلفزيون، وشكرتها واعتذرت لحاجتي إلىٰ أن أنفرد بنفسي للصلاة، إذ بها تدعوني للوضوء!

بعد أن عاد أبي من خروجه مع صاحب البيت، حيث مرَّا علىٰ مصنع صغير يمتلكه الرجل، جلسا في فناء البيت الواسع قليلًا علىٰ كرسيين وخلفهما الريحان ونباتات أخرىٰ جميلة، بعد أن أنار الرجل مصباحًا متدليًا فوقهما، وأخذا يضحكان كصديقين قديمين، في سحابة من حشرات طائرة شديدة الصغر كالغبار، كشفها الضوء الأصفر الناعس للمصباح. لقد حدث بينهما علىٰ ما يبدو استظراف سريع أخرجهما من تحفظ اللقاء الأول. وشد انتباهي وأنا أنظر إليهما وجعلني أبتسم وجود شبه كبير بينهما، بالفعل شيء جميل أن يجد الإنسان نفسه في ضيافة غير متوقعة عند رجل شديد الشبه به كأنه توأمه، وكنت أسمع أبي يكرر له بعاطفة شجية قسمًا بالله العظيم علىٰ صدق واقعة غريبة حدثت له، ودار حديث كان يغذيانه

معًا، كل واحد منهما من ذاكرته وإيمانه، عن تدابير الله، وكان يبدو أنهما يصدقان تمامًا، وبمساعدة من العاطفة، أنهما يتكلمان عن إله واحد يعرفانه، لا يضلان عنه، ثم دخل إلينا أبي خفيف الروح تمامًا.

وبعد قليل من هذا، عاد أخي بيتر مندهش العينين وقد علا التراب بنطلونه من الخلف، وهمس إليَّ بأنه سار علىٰ خطىٰ الرهبان القدامىٰ الذين سلكوا في البرية التي تقع هذه البلدة علىٰ تخومها، وكأنه سمع في هذا الليل تراتيلهم، وأنفاسهم، ودخل بعض المغارات التي في الجبال القريبة، ورأىٰ بعض النقوش الغريبة في إحدىٰ هذه المغارات، وسيعود قريبًا وحده، ليفتش فيها كلها، فقلبه يحدثه أن هناك كنزًا من المخطوطات ينام منذ قرون في مغارة ما من تلك المغارات التي من المؤكد أن الرهبان اختلوا فيها بربهم في التسابيح.

وبرغم وجود سريرين كبيرين، إلَّا أننا جهَّزنا للنوم علىٰ الأرض كنوع من التغيير، وبيتر قد أيَّد تلك النومة جدًّا؛ ربما لأنه هكذا كان يستلقي القديسون في البرية التي علىٰ تخومها ننام. وضعنا رؤوسنا علىٰ مخدتين في وسط الغرفة، وتعلقت أعيننا في الظلام بالسقف، وظللت أنا وجدتي وأمي نطلب النوم الذي يأتي علىٰ مهل لأننا غيرنا محل نومنا، وتحدَّثنا نحن الثلاث مشفقات، مشفقات علىٰ هذه المرأة ربة المنزل من الجحيم الذي ينتظرها رغم

طيبتها وحنانها، أجمعنا عليها ونسينا باقي الأسرة؛ ربما لأنها كانت شديدة التلقائية والسذاجة، مما يجعلها تبدو لنا معذورة وتستحق الغفران، أشفقنا عليها من الجحيم، هذا الجحيم الذي ينتظر كل من لم يعرف المسيح معرفة حقيقية، ولم يرمِ حمله علىٰ الرب الذي رحم الناس وقبل التجسد والفداء، وقد طال بنا الوقت في هذا الحديث، ونحن غارقات في الظلام والطمأنينة وبعض الضجر من البعوض، وأنا كنت سعيدة بحديثنا؛ إذ أعود به طفلة تبدد ثقة الأم والجدة هواجسها.

وبعد وقت ساد الصمت، ثم قطعته جدتي بصوت واثق يغالب النوم، ونبَّهتني كعادتها عندما تتعرف إلىٰ مسلمة بارة وطيبة، نبَّهتني أن أدون اسمها، حتىٰ تذكرها وتشفع لها يوم الدينونة عند الرب. كانت قناعتها أن كلمتين طيبتين منها عن المشفوع لها أمام الرب، وأنه ليس من المناسب أن يعذبها بعد الجميل الذي فعلته لابنته (جدتي)، هما كافيتان لأن تنجو المرأة.

والحقيقة أن قائمة الشفاعة التي تضم المؤمنات بالله الواحد الذي لا شريك له، قد طالت جدًّا، حتىٰ إنني أحيانًا ما أقرأ لجدتي اسم واحدة منهن، فتقول: ذكريني بها، فأقول: أم أسماء يا جدتي، تلك التي أقامتك من الأرض يوم أن وقعتِ ونضحت وجهك بالماء وأخذت تدعو لك بالصحة والعافية، فتعلَّمت من ذلك أن أكتب اسم المرأة أو لقبها ثم أسجِّل بين قوسين نوع المعروف الذي أسدته للجدة.

المشكلة التي تكونت لديَّ بمرور الوقت هي ازدياد إيماني بهذه القائمة التي يتعلق بها مصير جمع من المسلمين، وبالدقة، يتعلَّق بها مصير جمع من المسلمات؛ فجدتي (نسويَّة) متحيِّزة لبنات حواء.

في البدء كنت أنظر إلىٰ المسألة كلعبة لطيفة اخترعتها الجدة ولا دليل عليها من التعاليم، ومع مرور الوقت، وتنامي القائمة، بدأت في أخذ الأمر علىٰ محمل الجد، فاستمرار شيء يدفع للإيمان به مهما بدا في البداية ساذجًا أفضل من لاشيء. ازداد إيماني حتىٰ إنني فكرت في أن أستغل تكليف جدتي لي بكتاب الشفاعة في أن أزج بكل من أحببتهم أنا أيضًا من المسلمين في ذلك الكتاب دون إذن الجدة، اعتمادًا علىٰ ضعف ذاكرتها، بشكل ما، رأيت أن زج أسمائهم أسهل وسيلة لإنقاذهم من الجحيم، أسهل من محاولة إقناعهم بالثالوث الإلهي، لكن إلىٰ الآن لم أمتلك الجرأة علىٰ فعل ذلك، ولا أعرف السبب.

حديث شفاعة جدتي للطيبات، وصورة أبي الغارق في الضوء وسحابة الحشرات الدقيقة الطائرة مع شبيهه المسلم، يجددان شوقي لأن أعرف الروح التي يجب أن يتحلىٰ بها مسيحي بار، عندما ينشغل بمن حوله من غير المسيحيين: هل هي كروح أبي التي ينكشف لها في غمرة الود والسلام علامات الشبه؛ أم كروح جدتي التي تشعر بالثقة والقيادة، وبالمسئولية عمن يمضون خلفها من

اللطفاء والطيبين من غير المسيحيين، وتأسف لهم وتتمنىٰ لهم فرصة للنجاة ولو رغمًا عنهم؛ أم كروح المحاضر الأجنبي الذي حضرت له محاضرة الشهر الفائت، روح الطعن والتحامل، حيث يجب أن تسمع كل كلام الآخرين دائمًا علىٰ أنه نباح، لتحتفظ بكل ما لديك من وداعة وخبز للمسيحيين وحدهم، وللآخرين الحجَر؟

يقول الباحث الأجنبي إن العرب الأقدمين ثم المسلمين منهم من بعد ذلك، عبدوا ذاتًا أخرىٰ: الله، الذي لا علاقة له بـ (God)، تأثروا في اعتقادهم في هذه الذات بديانات بدائية وثنية ظهرت في جيرانهم من كنعانيين وبابليين وغيرهم. يقف الباحث أمام شاشة العرض بعد إطفاء الأنوار، ويقدم مشهدًا تمثيليًا ليليًا بالصحراء، وآخر بالقرب من حوض نهرٍ، لجماعات همجية تقدس القمر وتقدم له القرابين، ثم يضم مؤشره الذي بيده، ويقول مطمئنًا مبتسمًا: هنا كانت جذور دعوة الإسلام، ثم تضاء الغرفة ويكمل حديثه الشيِّق. طبعًا لعله لا يعرف، أو لعله يعرف ويخفي معرفته بأن اليهود من سكان الجزيرة العربية كانوا يقسمون بالله، كما فعل أبي منذ قليل، وكان منهم من يسمَّىٰ (عبد الله)، فيما ترجم المسيحيون عبر العصور للخالق الأعظم بكلمة (الله)، وقالوا في الترجمة لسفر التكوين (فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) [تكوين ١ : ١].

أنا أعرف جيدًا أن الرجل الذي قطرنا بعربته، والرجل الذي

استضافنا، والمرأة التي أكرمتنا، يعبدون الخالق الواحد، ولا يعبدون (إله القمر) كما يدَّعي المحاضر الذي يتكلم عن حفريات، وعن نقوش، أمام جمهور يريد أن يصدِّق، ويريد أن يستخفَّ، ويريد أن يطمئن، ولا يريد أن يرىٰ الحفريات، التي يقال إنها تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك وثنية الإسلام؛ أين تلك الحفريات؟

إلىٰ أن تظهر تلك الحفريات، أسجل أنني عندما كتبت علىٰ محرك البحث جوجل كلمة (القرآن)، ثم بحثت في القرآن عن كلمة (القمر)، ظهرت لي هذه الآية ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

ثمة حفريات قديمة تدل علىٰ أن عبادة إله القمر قد عرفتها شعوب عديدة سابقة لظهور الإسلام بالشرق الأوسط والأدنىٰ، لكن من الأمانة أن نقول إنه لا علاقة لذلك بالدين الإسلامي من قريب أو بعيد، وأن نقول إنه كَسَحَ الأصنام وعبادة الأصنام من الجزيرة العربية كسحًا في زمن قياسي، فيما انتكس الشعب الإسرائيلي إلىٰ عبادة الأصنام مثلما حدث في عهد النبي إلياس.

وما إن غاب عن ذهني المحاضر ومحاضرته عن الجماعات الهمجية التي اتهم فيها المسلمين بأنهم امتداد طبيعي لوثنيين يعبدون إله القمر، حتىٰ تذكرت المحاضر الأسمر الشاب الذي يقول إن

المسلمين يعبدون الكعبة أو الحجر الأسود في الكعبة. والحقيقة أن الوثنيين قبل ظهور الإسلام عبدوا أصنامًا أقاموها في مناطق عديدة من الجزيرة، وأقاموها حول الكعبة، ولكنهم لم يعبدوا الكعبة ولا الحجر الأسود، فإذا كان الوثنيون الذين حاربهم محمد وحارب وثنيتهم، وبذل في هذا الغالي والرخيص، لم يعبدوا الكعبة، ولم يتهمهم القرآن بعبادة الكعبة، فمن المستغرب مع معرفتنا بهذا أن نتهم محمدًا نفسه وجماعة المسلمين بعبادة الكعبة. بل إنه أوضح للمسلمين، كما عرفت من قراءاتي، خطورة القتل قياسًا إلىٰ هدم الكعبة، فحكم بأن هدم الكعبة حجرًا حجرًا أهون عند الله من قتل إنسان مسلم.

ليس من المعقول أبدًا أن نتهم محمدًا بصناعة دينه من لملمة تلك الشذرات الثقافية والبقايا الوثنية في بيئته السامية، ونحن نعرف أنه حارب وحذَّر من أن يتَّخذ قبره بعده وثنًا يُعبد، وكذلك ليس من المعقول أن نتهمه تلك التهمة ونحن نلحظ عدم وجود صورة أو تمثال له في أي بيت من بيوت المسلمين، في ناطحة سحاب في نيويورك أو في خيمة بدوية أو في كوخ في غابة، وهو غياب ناتج عن التحريم اللحوح والجدي في العقيدة الإسلامية لكل الدروب المؤدية لتقديس الصور والبشر.

المحاضرون يتكلمون للجمهور عن وثنية الإسلام؟ تعجبني هذه الجرأة عند التحدث أمام الجمهور، أما أنا فتأتيني الجرأة فقط

في حديث النفس، وعندما أكتب في دفتري. وأنا أسجل سعادتي لمبيتي عند هؤلاء الناس في غرفة بغير صور مسيحية، بل إنني فهمت الآن سبب سعادتي بأي فرصة للمبيت في فندق أو ما شابه، في أي غرفة لا تعلن هويتي الدينية، كل فترة كنت أحتاج إلىٰ شيء كهذا، لأشعر بتلك السعادة المربكة، من عدم وجود صور أقدسها علىٰ الحائط، وهي صور قد لا تمثل الشكل الحقيقي لأصحابها بما فيهم المسيح نفسه.

وأذكر كيف وقفت امرأة ساذجة تعمل في تربية الخنازير، تحت صورة ساحرة للعذراء وحولها هالة من النور بزيها الأزرق وهي تمد يديها الملائكيتين، وقفت تحدِّق في الصورة فترة، ثم كشفت مؤخرة ابنها الصغير الذي تحمله بكل حماسة، ولصقتها بيد العذراء الممدودة؛ حتىٰ تشفيه من الخرَّاج، لا أعرف إن كان قد شفي من هذا الخرَّاج بعد ذلك أم لا، كل ما أعرفه أن المنظر كان سيئًا، وقد كان من الممكن أن يكون أكثر سوءًا، لو تبرَّز الطفل وقتها.

عندما نبهت تلك المرأة الجاهلة للعواقب التي من الممكن أن تحدث لها ولابنها لو تبرَّز علىٰ يد العذراء وكمِّ العذراء، ردت الزرائبية مربِّية الخنازير، بكل عفوية، وسرعة بديهة، وعلىٰ وجهها بسمة بريئة: وهل من المعقول أن ربنا يسوع المسيح لم يفعلها في صغره ولو مرَّة علىٰ كمِّها؟

كل المرات التي قرأت فيها من القرآن، كنت ألحظ أن الله منزه عن أي نقص، وعن أي عارض من عوارض الجنس البشري، فهو لا يتعب، ولا يُهزَم، ولا يستشير، ولا يندم، ولا ينام، ولا ينسىٰ، ولا يجهل، ولا يظلم، ولا يلهو. لا يوجد في القرآن آية واحدة توثّق نقصًا في الذات الإلهية، أنا حاولت أن أجدها غير أني فشلت، فهل هذا كتاب أسس لديانة ذات أصول وثنية؟!

الغريب أن من اتهم الإسلام بالترويج لإله من الميراث الوثني في جلسة ما -اتهمه هذا الاتهام وهو محاط بالتماثيل المقدسة- قد عبر عن انزعاجه في جلسة أخرىٰ من ذلك السمو للذات الإلهية البادي في القرآن، لأنه يريد، وينصح برب أقل تساميًا وتجريدًا، هذا بالطبع عندما كان الوعظ عن محبة الله لنا وأبوته، فهو يريد أبناءً لا عبيدًا، وهي عظة حماسية وعاطفية يختلف الناس في فهمها، فخرجت ثلاث جدات بشوشات من ذوات الشعر الفضي من العظة المثيرة، وقد آمنت واحدة بأنها تعبد الله بتوازن بين الحب والخوف، والثانية تعبده محبةً فقط ولا تعبده عبادة الخوف، والثالثة، وهي جدتي، كان فهمها أنها الآن لا تعبد الله، فقط تحبه جدًّا! وهكذا أوجد الدرس العاطفي النزعة، الذي كان شغل ملقيه الشاغل إعطاء ميزة نفسية للمسيحية علىٰ كل الأديان الأخرىٰ، أوجد حالة من (التنوع) الغريب ضد تسامي الإله، رغم أن هذا التسامي (المزعِج) يناقض تمامًا التجسيم والتحديد والوثنية

(المزعِجة)، التي اتهم المحاضر الإسلامَ بها في الدرس السابق الذي لم تحضره الجدات البشوشات الثلاث ذوات الشعر الفضي، عندما كان محاطًا بالتماثيل المقدسة.

ويتهم معلم آخر، تم تقديمه باعتباره دارسًا متخصصًا للإسلاميات، يتهم إله المسلمين بأنه (متعال)، بصوت مؤثر ساحر، صوت ساحر لا يسمح للجالسين بالتفكير في أن التعالي للإله ليس تهمة، ومن المضحك أن هذه الصفة (التهمة) قد وُصِف بها الله في المزامير **(أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَمُتَعَالٍ إِلَىٰ الأَبَدِ)** [٩٢: ٨]، والخدعة التفسيرية كانت بسيطة وخبيثة، فقد جعل تعالي الإله عند المسلمين وهو يوضحه يعني تقريبًا العجرفة. هذا ومع حسن الإصغاء، والتسليم الكامل من الحاضرين، ألقىٰ تهمة أخرىٰ علىٰ إله المسلمين، وضع إصبعه علىٰ السطر، وهز رأسه منتشيًا، وقال إن إله المسلمين (جبار)، أنا لم أأت بشيء من عندي، هكذا يصف القرآن الإله، يقول هذا ثم يتأوه، وهذا أيضًا يثير الضحك مجددًا، فالمتخصص في الإسلاميات وجمهوره نسوا جميعًا أن الله موصوف بهذا الوصف في المزامير **(مَنْ هُوَ هَذَا مَلِكُ الْمَجْدِ؟ الرَّبُّ الْقَدِيرُ الْجَبَّارُ الرَّبُّ الْجَبَّارُ فِي الْقِتَالِ!)** [٢٤: ٨]، وقد كان يستخدم أسلوبه نفسه، فقد جعل جبروت الإله عند المسلمين يعني تقريبًا الاستبداد. ثم يصعد بهم إلىٰ قمة الأسىٰ والأسف علىٰ عقول المسلمين وفساد ذوقهم حتىٰ إنهم رضوا بأن يكون الإله (منتقمًا)،

ويشير مرة أخرىٰ، (انظروا مرة أخرىٰ، هل أنا الذي وضع هذه الكلمة في القرآن؟! ليس أنا بالطبع). وأنا من جهتي أتفق معه في أنه لم يضع هذا في القرآن، مثلما أنه لم يضعه في الكتاب المقدس، ففي هذا الجو المفعم بالحيوية وروح الاكتشاف، ينسىٰ الحاضرون والمحاضر الأنيق أن هذا موجود أيضًا بالكتاب المقدس، ففي سفر صموئيل الثاني [٢٢: ٤٨]: (**الإِلَهُ الْمُنْتَقِمُ لِي وَالْمُخْضِعُ شُعُوبًا تَحْتِي**).

في الصباح، الذي جاء، حينما جاء، كأنه جاء في غمضة عين، كان الميكانيكي قد وصل ومعه عدته كاملة، فتّش وفحص، وذهب ليأتي بقطع غيار، وبعد ساعتين من مجيئه كان قد انتهىٰ من إصلاح السيارة علىٰ أكمل وجه، وسعدنا بها وهو ينطلق بها علىٰ سبيل التجربة ويعود مبتسمًا، وركبنا سيارتنا أخيرًا باتجاه بيتنا، وهم يودعوننا من خلف الزجاج، وكانت عينا أخي متعلقتين بالعودة القريبة في جنح الظلام، فيما كانت جدتي تتأمل مبتسمة، وبصوت مسموع، في الإشارة اللطيفة التي أرسلها الرب لنا، عندما بعث إلينا ميكانيكيًا مسيحيًا.

ذئب يبيت وحده في غرفة عمي

لن أنسىٰ ذلك اليوم الذي توفي فيه عمي زكي في طفولتي، ولا ذلك الاصفرار الكئيبَ لشمس الخريف التي دخلت غرفته بأشعَّتها الباهتة. لقد قدِّر لي أن أحضر موقفًا شديد الغرابة، ما زلتُ أكتم ذكراه في أعماقي، ولم أجرؤ علىٰ البوح بهِ لأحد، إلَّا الآن لهذا الدفتر الأزرق الذي أَسجن أسراري وخواطري وأشجاني الأرضيةَ بين دفَّتيه.

وما حدث يوم وفاة عمي كان شيئًا مهولًا فوق قدرة طفولتي علىٰ التوقع، وفوق قدرة طفولتي علىٰ الاحتمال؛ فجدتي التي خرجت لتأتي لعمِّي بكوب الماء في هدوء، فورَ أنْ طلبَ الماء بصوتٍ واهن، لم تتوقع أن أخرج وراءها بعد قليل، لأصرخ بأن رأسه ارتمىٰ علىٰ المخدة، فأغمضت جدتي عينيها حزينةً حزنًا نبيلًا يليق بموتٍ كان محسومًا. كنت متلجلجةً تمامًا ومذعورةً ومتقطِّعةَ الأنفاس، لم أكن مذعورةً لوفاته فقط كما ظنَّت جدتي، بل لشيءٍ

بدا لي أهمَّ من وفاته وأخطر، لهذه الكلمات الأخيرة التي قالها واختطفتني وزلزلتني وطاردتني من الغرفة للمطبخ، وبينما موته جعل ساقي تلتفُّ بساقي بسبب ما سمعتهُ منه في النزع الأخير، وجدت هذا الموت نفسه يهَبُ جدتي حزنًا رصينًا واثقًا.

كانت تقول للمعزِّين الذين جاءوا، وللمعزِّين عبر التليفون، وهي تبكي بكاءً وقورًا فيه الكثير من الطمأنينة والحنان، ويخلو من الجزَع والرفض، تقول: إنها عادت إلىٰ ابنها فرأت عند رأسه ملاكًا جميلًا يسقيه الماء ويمسح عن جبينه العرقَ المتصبب، ورحل هذا الملاك مبتسمًا فور ما رآنا ندخل الغرفة مسرعتين، قبل أن تلحق بنا بقيةُ العائلة.

لقد أكَّدتْ هذا الشيء الخاطف الذي لم ألحظه، بصوتٍ يملؤه اليقين، فاتهمتُ نفسي بالتقصير والبلادة وضعف الملاحظة، وارتبكتُ عندما استشهدتْ بي إن كنت رأيتُ ما رأتْ، فضغطتُ علىٰ خيالي أحاول أن أستحضر هذا الملاك الجميل، متورِّد الخدَّين، ناعمَ الشعر، الذي كان يسقي عمي ويمسح عرقه، وصرت بغير وعيٍ الشاهدَ الوحيد علىٰ صدق رواية جدتي أمام الناس، وأنا شاهد لم يرَ شيئًا، ويلوم نفسه علىٰ أنه لم يرَ شيئًا، أتكلم خلفها بعد أن تطلب مني الشهادة، أتكلم بإجهادٍ نفسيٍّ وأنا أبلع ريقي، عن رؤيتي لهذا الملاك عند رأس عمي.

وكنت أشعر بالامتنان دائمًا لأنهم لم يوجِّهوا لي أو لها

نظرات الارتياب، بل إني شعرت بالامتنان للمُسْلمات اللائي جئن للتعزية للسبب نفسه، وقد كنت خائفةً منهن أكثر؛ فقد تنبهت منذ صغري لعلاقة الموت بالدين، فهو بوابة إلىٰ الحقيقة المستترة عنَّا من خلفه، والمسلمات يعني لهم موت عمي شيئًا آخر غير ما يعنيه للمسيحيين، والعكس صحيح كذلك إذا ما ذهب المسيحيون لواجب العزاء في مسلم؛ شعرت إذن برغبة في ألَّا يتم التلميح لما بعد الموت، التلميح لما بعد الموت اعتداءٌ متبادَل، وأنا تقريبًا مولودة بحسٍّ اجتماعيٍّ عالٍ، فمجرد التأكيد من جدتي علىٰ أن له الجنة ونعيمها في حضور المسلمات، ربما يعتبر شيئًا مستفزًّا؛ لذا كنت مضطربةً بينما جدتي الهجومية المستسهِلة تحاول أن تستخدم قصة ذلك الملاك للتأثير فيهن عقائديًّا من باب الشفقة، وإن كان في عرضها شيءٌ من المباهاة والفخر والتبكيت المبلل بالدمع (عندنا ملايكة وأنتو لأ)؛ والمشترك بين المعزِّيات المسلمات كان هز الرأس الذي يفيد التأسف علىٰ موت عمي، ويفيد التهرُّب والرغبة في أن تغيِّر جدتي حديثها، فيما كانت هي تتنهَّد وتطلب منه أن يصلي لنا أمام عرش النعمة.

ظننت أنه كان في عينَي إحداهن ما فسَّرتُه علىٰ أنه استخفاف لا إرادي بحديث جدتي يوشك أن يتحول لابتسامةٍ مستهترة، فشعرت بأنني أرغب في الدفاع عن عمي الذي ذهب في الصندوق في الصباح، أدافع عنه أمام هذه النظرات المستهترة، عليها أن

تتعاطف مع موته الذي جاء بعد رحلة معاناة مع السرطان، وتنسىٰ الآخرة، وأنا لديَّ ما يثير تعاطفها، ولكن لا أستطيع قوله، ولا أريد.

هل كانت جدتي تكذب وهي تتكلم عن هذا الشيء الذي قالت عنه إنه كان خاطفًا جدًا كالبرق؟ لا، بل كان الأمر لا إراديًا، مثل الذي كنت أتحسس منه في عيني المرأة المسلمة التي لها وجه يبدو ضاحكًا في جميع الأحوال، جدتي فقط امرأة قوية العاطفة والخيال كانت تحت تأثير شعورٍ عميق بالحزن والفقد، فلعلها رأت تحت تأثير ذلك ما تتمنىٰ لابنها الصالح الطيب الودود الذي اختطفه مرض السرطان من بيننا بعد أن أسقط شعرَ رأسه وشعر رموشه، أما أنا فسمعت من «عمّ زكي» قبل موته ما لا يتمنىٰ سماعه مسيحي واحد علىٰ وجه الأرض، نعم، فرغم مرور كل هذه السنين، إلا أن ما سمعته ما زال واضحًا لدرجة عنيدة، فقد نطق بالشهادة التي ينطقها المسلمون، وكان للشهادة وقع مهول علىٰ قلبي الصغير.

رحل وترك من خلفه ذئب شهادته يبيت في الغرفة وحده، ذئب استأنسه ضعفي، ويصاحبني أحيانًا في التنزه في طرقات الوحدة والتأمل. لذا فقد كنت طفلةً حملت حملًا ثقيلًا، كدت أسقط علىٰ وجهي منه في البداية، وكلما نضجت وكبرت، تعوَّدت علىٰ هذا الحمل أكثر، حتىٰ صرت كمن لا يرغب في أن يضعه عني أحد، وصرت أرغب في الاحتفاظ بهذا الإيقاع البطيء

المستفز الذي كان ينطق به بصوتٍ واضح، وباطمئنان وكأنه لا يوجد حوله أحد من البشر: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله؛ لذا لم يكن حملي للعروسة الصلعاء المرة الأولىٰ التي أحتفظ فيها بما يرهقني.

وصرت من ناحية أخرىٰ أستحث جدتي علىٰ تذكر الملاك الجميل، وكلما مر بها الوقت، اكتسىٰ وجهها بشيءٍ مما كان علىٰ وجهي من الارتباك يوم أن كانت تستشهد بي، انقلبت اللعبة، أخذت تشفىٰ من القدرة الهائلة للصدمة علىٰ الإيهام، كأنها بدأت تشك فيما رأت، لكنها كانت مضطرةً للاستمرار ولكن بأداءٍ باهتٍ مختصر، كنت أمارس عندئذ شيئًا من التعذيب اللطيف، هل تذكرين الملاك جدتي؟ نعم، نعم.

لقد خرجت من هذه التجربة بأثرٍ بالغ: صرت أقارن، بين العقيدة المسيحية والعقيدة الإسلامية، والميول المسيحية والميول الإسلامية، بشكلٍ قهريٍّ لا أستطيع التوقف عن ارتكابه، وصرت أرىٰ أن موت عمي يعكس من زاويتين مختلفتين هاتين العقيدتين والميول المرتبطة بأتباعهما، فهي رأت ملاكًا، وأنا سمعت الشهادتين؛ إذن لنا الصورة ولهم الكلمة، وسيظل هذا للأبد.

هذه الحادثة التي يرقد بطلها تحت قبر يعلوه الصليب علىٰ رجاء القيامة، هي التي أصابتني لمدةٍ تقارب الشهرَ بعدم القدرة علىٰ التحكم في البول، وهو شيءٌ كاد يصيب أمي بالجنون، أما أنا

فقد دمَّرني خجلًا من نفسي، هذه الحادثة هي التي فتحت باب القلق العقائدي أمامي، وقد كان هذا مبكرًا جدًّا، وفوق السيطرة.

وهذه الحادثة التي يرقد بطلها تحت قبر يعلوه الصليب علىٰ رجاء القيامة، هي التي تجعلني أشعر بالاستفزاز، عندما يبتسم هذا ويحكي كيف أن ملاكًا ساعده علىٰ الخروج من السيارة عندما انقلبت به في الطريق الصحراوي، وعندما تنقل تلك المسيحية الشابة المتدينة إحساسها الطاغي بحضور ملائكي في غرفتها بالمدينة الجامعية، كلما سمعت أشياء كهذه رجعَ بي الزمن للوراء، والتفَّت ساقي بساقي، وسمعت صوت عمي وهو ينطق بالشهادة، وتمسَّح بي ذئبه.

من بعد فترة العزاء التي شعرت فيها بأن جدتي ربما تعزي المسلمات علىٰ ما يعانينه من الحرمان من وجود الملائكة في دينهن، أذكر بشكلٍ مشوَّش تلك النشوةَ التي شعرت بها في صغري وأنا أشاهد دقيقة عابرة من درس تلفزيوني ديني يتكلم فيه الشيخ المسلم الذي لا أذكره عن تبشير الملائكة لزكريا بأنه سيُرزق بالنبي يوحنا (يحيىٰ)، بدا لي الأمر وقتها كأنه امتداد لما حاولت جدتي التأكيد عليه من أننا نحن الذين لدينا الملائكة، ونحن فقط الذين تزورهم الملائكة وتبشِّرهم وتُسدي لهم الخدمات، ثم اكتشفت مبكرًا، ومن دون جهد، أن الملائكة في دين المسلمين، ثم عرفت من بعد ذلك أن الملائكة مذكورون ومعظَّمون في أديان أخرىٰ بما فيها ديانات وثنية.

كنت أود أن أجد في نفسي صلابة جدتي، وإيمانها العارم بأن هناك أشياء لنا وحدنا، رغم معرفتي بأنه لم يكن هناك ملاك عند السرير، ولما عرفت أن الملائكة لا ينكرهم الآخرون، هربت نفسي من هذه المزاحمة، بحثًا عن الخاص، الذي يرث المسيحيون وحدهم العلم به، والاستشعار به، الذي يغفل عنه الآخرون ولا يهتدون إليه.

لذا انصرفت مشاعري في اتجاهٍ آخر بشكل عفوي، تقوَّىٰ لديَّ اعتزاز مبكِّر واحتمائي بالروح القدس، كان لدي مشاعر أوضح تجاه المسيح، ومشاعر أقل وضوحًا تجاه الآب نفسه، أما مشاعري تجاه الروح القدس فكأنها جاءت خصمًا من مشاعري تجاه الملائكة، تعلَّقت به، باعتباره انفرادنا، انفرادنا الإنجيلي الذي أشرق مع كرازة المسيح[١]. واستمر الأمر هكذا سنواتٍ قليلة، إلىٰ أن أخذت صدمة معرفية مزعجة بعض الشيء، عندما علمت أن الروح القدس يبيت في التوراة، يعرفه اليهود من قبلنا، يمرون عليه جيئةً وذهابًا في بياته عندهم بغير أن يثير الدرجة التي يستحقها من الفضول. الروح القدس ليس إلهًا عند اليهود، وهم يرفضون تمامًا الإيمان المسيحي بأُلوهيته، بكل الخمول، بخمول الواثق ثقةً قديمة راسخة من كون الله واحدًا. وأنا ألتمس العذر لعدم استشعار يهوديٍّ واحدٍ تلك الألوهية التي نصِفها بأنها (قليلة الوضوح) للروح

(١) تبشيره ووعظه ودعوته.

القدس في العهد القديم طيلة القرون، عبقريًّا كان أو ملهمًا أو موسوسًا، لأنه لا العبقري ولا الملهم ولا الموسوس إن نظر في العهد القديم، سيفسر من تلقاء نفسه (يَرْفَعُ الرَّبُّ وَجْهَهُ عَلَيْكَ وَيَمْنَحُكَ سَلاَمًا) [العدد ٦: ٢٦]، علىٰ أنها تعني (الروح القدس يظهر شركته ويمنحك سلامًا)، فقط المفسِّر المسيحي يستطيع ذلك وأكثر، بمعاونة الروح القدس بالطبع!

طالب الجنان

كل هؤلاء المسلمين علىٰ شبكة الإنترنت، الذين يغوصون في كتابنا المقدس الذي نسبح فيه بسلام، وتظهر رؤوسهم فجأة، وهم يمسكون في أيديهم أشياء، ثم يغطسون مرة أخرىٰ، بالتأكيد، لا ينظرون إلىٰ هذه الكلمات في إشعياء التي تتكلم عن روح الرب ومثيلاتها، باعتبارها تشير إلىٰ عمل الأقنوم الثالث في البشر، أي الروح القدس: (وَيَحِلُّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ رُوحُ الْحِكْمَةِ وَالْفَهْمِ رُوحُ الْمَشُورَةِ وَالْقُوَّةِ رُوحُ الْمَعْرِفَةِ وَمَخَافَةِ الرَّبِّ) [إشعياء ١١ : ٢]؛ لأنهم ببساطة لا يؤمنون بوجود أقانيم لله، إنها بالنسبة إليهم فكرة ساقطة، وبشعة، ومنقطعة الصلة بالإرث التوحيدي.

وهم يغطسون بيننا من أجل تأكيد قناعاتهم، من خلال نفس مصادرنا التي يرونها لا تخلو من الاضطراب واللا منطقية، وقد اشتبكت رغمًا عني مع واحد منهم، أزعجني أن يغطس بالقرب مني، في مسألة الروح القدس، وكان صاحب لغة فخمة خمَّنت أنها

ستعيقه عن سرعة التعبير والتكثيف، ورجحت أن الحوار معه سيكون بطيئًا ومملًا ولا يغري بالتكرار. كما أني شعرت أنه شخص ثقيل يحب أن يبدو ظريفًا خفيف الظل، حتىٰ يمكنه التأثير في من يشككهم، ولن ينجح أبدًا في إضحاكي. والحقيقة أنه لم يكن يحب أن يضحك الآخرين كما ظننت، فقد نتج هذا الظن عن سوء فهم محرج.

لقد وضعت أمام هذا الشاب الذي كان مصرًا علىٰ أن الروح القدس ليس هو الله، ثلاثة حواجز متدرجة الصعوبة؛ لأني كنت أرغب في القيام لإعداد كوب من النسكافيه، وليبحث هو علىٰ مهل، إلىٰ أن أعد النسكافيه ثم يبرد قليلًا، لقد تركت له طلباتي الثلاثة، يبحث فيها ويتأمل ويضع خطوطًا عريضة ويطلب مهلة للغد حتىٰ يجمع لي ما أريد، هذه إحدىٰ طرق إنهاء الحوار التي تتصف بالذوق واللياقة، أن أضطر الآخرين لطلب مهلة، إذن عليه أن يثبت من الكتاب المقدس، الكتاب المقدس وحده، أن روح الله قد تعني شيئًا آخر غير روح ذاته، هذا هو الطلب الأول، ثم أن يثبت أن لفظ الروح قد يعني الملائكة، وهذا طلبي الثاني، وعليه أن يجيب علىٰ الطلب الثالث الصعب... ولكن ما هو هذا الطلب الثالث الصعب؟ حاليًا أنا غير قادرة علىٰ تذكره، أرجو أن أتذكره بعد ذلك.

كان الاسم الذي اختاره لنفسه ذلك الشخص الذي يجادلني هو (طالب الجنان)، وكان عليَّ أن أدافع عن إيماننا بالروح القدس بأن أصيبه إصابة نفسية تعيقه نوعًا ما منذ البدء؛ لذا فاجأته، بعد أن دعوت له أن يعرِّفه الله طريق الحق والنجاة، فاجأته بسؤالي عن سر استخدامه لاسم كوميدي وهو رجل متدين يتكلَّم في أمور جادة، وشرح الأمر لي ببساطة فضحكت من نفسي، إن اسمه يعني أنه راغب في دخول جنات الله، وليس راغبًا في الإصابة بالجنون؛ لقد ذهبت بعيدًا جدًّا، وأصبت بدلًا منه بالإصابة النفسية المعيقة نوعًا ما، وهذا يعني أن الروح القدس الذي أتولىٰ الدفاع عنه ضد من يؤمن بوجوده ويقدره ولا يمكن أن يجدِّف باسمه ولكنه لا يعبده، لم يقم حتىٰ بإسعافي بموهبة لاستيعاب فصاحة (طالب الجنان) صاحب اللغة الرصينة، حتىٰ أستطيع أن أفهمه وأقنعه أو حتىٰ لأفهم اللقب دون أن أبدو عنده ضعيفة اللغة؛ مجرد تدخل لغوي لطيف وقت الحاجة، حتىٰ ولو بمجرد الهمس في أعماقي بأن السؤال ليس في محله، (لا تسألي يا عزيزتي هذا السؤال، إنه سؤال أبله)، وهذا سهل إذا ما قورن بما حدث يوم الخمسين من إطلاق ألسنة رسل المسيح فتكلموا بألسنة غريبة.

لقد توقف الروح القدس منذ قرون عن ممارسة هذا الأمر تمامًا، رغم أنه آية مفحمة لغير المؤمنين، وترك الرعاة المعاصرين والمبشرين للمعهد البريطاني ومعهد جوتة وغيرهما من معاهد تعليم

اللغات حتىٰ يمكنهم المشاركة في الإرساليات، وترك رجال الرب الباباوات لتحية الشعوب بلغاتهم بكلمات قليلة مرتبكة النطق، وهذا مزعج بالطبع، والأشد إزعاجًا منه أنه حتىٰ في زمن تلاميذ المسيح لم يعلم التلميذ الذي سماه المسيح الصخرة، التي عليها يبني كنيسته: الرسول بطرس، لم يعلمه اللغةَ اليونانية، وتركه لخدمات الترجمة!

إلىٰ أن انتهيت من إعداد كوب النسكافيه، كان (طالب الجنان)، المطَالب بأن يثبت أن روح الله قد تعني شيئًا آخر غير روح ذاته قد ذهب إلىٰ رؤيا يوحنا، وكتب: (**وَرَأَيْتُ فَإِذَا فِي وَسَطِ الْعَرْشِ وَالْحَيَوَانَاتِ الأَرْبَعَةِ وَفِي وَسَطِ الشُّيُوخِ حَمَلٌ قَائِمٌ كَأَنَّهُ مَذْبُوحٌ، لَهُ سَبْعَةُ قُرُونٍ وَسَبْعُ أَعْيُنٍ، هِيَ سَبْعَةُ أَرْوَاحِ اللهِ الْمُرْسَلَةُ إِلَىٰ كُلِّ الأَرْضِ**) [رؤيا يوحنا ٥: ٦]، ففي النص سبعة أرواح لله، ولا يمكن أن تكون هذه الأرواح السبعة أرواح ذاته، إذن هي مخلوقات خلقها وأرسلها؛ إذن روح الله قد تعني شيئًا آخر غير روح ذاته.

هذا ما قدَّمه؛ لقد كان مبكرًا جدًّا وقبل أن تكون سخونة النسكافيه ملائمة للاحتساء. لذا كتبت: (حسنًا)؛ كنت حريصة علىٰ استخدام لغة فصيحة، وأفضل طريقة لذلك ليست في الاستعانة بالروح القدس، بل في التعبير بكلمة واحدة.

وبعد أن بدأت أحتسي النسكافيه، وفرغت من نصف الكوب،

منتظرة منه طلب المهلة، قفز فوق الحاجز الثاني؛ ذهب إلىٰ سفر أعمال الرسل وكتب: (وَبَيْنَمَا بُطْرُسُ مُتَفَكِّرٌ فِي الرُّؤْيَا، قَالَ لَهُ الرُّوحُ: «هُوَذَا ثَلاَثَةُ رِجَال يَطْلُبُونَكَ. لكِنْ قُمْ وَانْزِلْ وَاذْهَبْ مَعَهُمْ غَيْرَ مُرْتَابٍ فِي شَيْءٍ، لأَنِّي أَنَا قَدْ أَرْسَلْتُهُمْ». فَنَزَلَ بُطْرُسُ إِلَىٰ الرِّجَالِ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِ مِنْ قِبَلِ كَرْنِيلِيُوسَ، وَقَالَ: «هَا أَنَا الَّذِي تَطْلُبُونَهُ. مَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي حَضَرْتُمْ لأَجْلِهِ؟» فَقَالُوا: «إِنَّ كَرْنِيلِيُوسَ قَائِدَ مِئَةٍ، رَجُلًا بَارًّا وَخَائِفَ اللهِ وَمَشْهُودًا لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةِ الْيَهُودِ، أُوحِيَ إِلَيْهِ بِمَلاَكٍ مُقَدَّسٍ أَنْ يَسْتَدْعِيَكَ إِلَىٰ بَيْتِهِ وَيَسْمَعَ مِنْكَ كَلاَمًا) [أعمال الرسل ١٠: ١٩: ٢٢]؛ فالآيات تؤكد علىٰ أن هناك من يقول عن الملاك: (الروح)، فالواسطة بين كرنيليوس وبطرس هو: روح، أو بصيغة أخرىٰ: ملاك مقدس؛ إذن لفظ الروح قد يعني الملاك.

ومن المؤسف جدًّا بعد ذلك أنني ذهبت لغسل الكوب، وعدت لإلقاء نظرة علىٰ الشاشة، فوجدته يطلب استئناف النقاش في وقت لاحق، ويضع الرسم التعبيري الذي يفيد التوديع، وصعدت لأعلىٰ مع سطوره، فوجدته قد لبَّىٰ الطلب الثالث الذي لا أستطيع الآن تذكره، لقد كان حاضر الذهن بدرجة قاسية، ولم أرغب بالتعليق ولو بكلمة واحدة، فربما يصيبه بالضيق أن لا أكلف نفسي عناء الرد عليه بعدما تعب في إثبات ما يؤمن به.

علىٰ كلٍ، كان هناك ثلاثة أدلة، وكلها من العهد الجديد، ومع ذلك فكل دليل من هذه الأدلة لو عُرِض وحده لا يقنع المسيحي قناعة تامة بأن الروح القدس ليس إلهًا، وإذا جُمعت هذه الأدلة فإنها أيضًا لا تقنعه، وإذا أضيف إليها المزيد لن يقتنع؛ بحكم الملاحظة، هناك ما يمكن تسميته (متلازمة المسيحي المؤمن)، أعراضها عدم قبول الأدلة مهما كانت دامغة، وأنا في النهاية مسيحية كذلك، مصابة بدرجة خفيفة من هذه المتلازمة، حيث أشعر بالحاجة المستمرة لمزيد من الأدلة القوية، لأرفضها من بعد ذلك.

تسلل إليَّ شعور بأنني ربما نسيت رد (طالب الجنان) علىٰ طلبي الثالث بعمل من الروح القدس نفسه في

أعماقي، فطالما أن السلام من ضمن ثماره في علاقتنا بالله، واللطف من ضمن ثماره في علاقتنا ببعضنا بعضًا، والوداعة من ضمن ثماره في علاقتنا بأنفسنا، فهذا كله يستلزم أن ينسينا كلام الشر، السلام واللطف والوداعة تحتاج إلىٰ أن ينسىٰ المسيحي بعضًا مما يقوله غير المؤمنين مثل (طالب الجنان).

وقد قلت مثل هذا الكلام علىٰ الشاطئ الجميل في رحلتنا الكنسية إلىٰ مرسىٰ مطروح، الروح القدس يمسح من الذاكرة ما قد يتسبب لنا نحن الضعفاء في عثرة، نتعرض للتجربة، ولكن مساعدة الرب لا تتأخر، عندما يضع الله ثقلًا فوقنا، فإنه يضع ذراعه تحتنا فلا تهتز نفوسنا ولا تضطرب.

وقد أعجب هذا الكلام البنات، وكل واحدة أحبت أن تؤكد عليه من خبرتها الخاصة بالنسيان اللطيف الذي سببه لها الروح القدس عندما كان هناك شيء في حياتها يؤلمها تذكره؛ وهذا في الحقيقة، شيء جميل في ديننا أو في أي دين آخر، تعاون الجماعة مع الفرد اللبق في التأكيد علىٰ أفكاره الإيمانية، وتشجيعهم له علىٰ تحميله للنصوص أكثر مما تحتمل.

لقد عدت من الرحلة وقد ازددت إيمانًا بأن الروح القدس قد أنساني سؤالي الثالث لطالب الجنان وأنساني إجابته، زاد هذا الإيمان تحت تأثير من كنت أؤثر فيهم علىٰ الشاطئ. لكني تذكرت فجأة بعد يومين أو ثلاثة من الرجوع من الرحلة، ليعصف التذكر بعظة الشاطئ.

قلت له يومها: إن كنا لا نستطيع أن نثبت لليهود من خلال العهد القديم ألوهية الروح القدس، كما ترىٰ، فهل يمكنهم هم إثبات فكرتهم عن الروح القدس من خلال العهد الجديد؟ أنا أحب أن يلزمني الآخرون بالعهد الجديد. فكانت إجابته أن وضع لي نصين من العهد الجديد وطلب مني أن أقارن بينهما:

(فَمَنْ مِنْكُمْ، وَهُوَ أَبٌ، يَسْأَلُهُ ابْنُهُ خُبْزًا، أَفَيُعْطِيهِ حَجَرًا؟ أَوْ سَمَكَةً، أَفَيُعْطِيهِ حَيَّةً بَدَلَ السَّمَكَةِ؟ أَوْ إِذَا سَأَلَهُ بَيْضَةً، أَفَيُعْطِيهِ عَقْرَبًا؟ فَإِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ تَعْرِفُونَ أَنْ تُعْطُوا أَوْلاَدَكُمْ عَطَايَا

جَيِّدَةً، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ الآبُ الَّذِي مِنَ السَّمَاءِ، يُعْطِي الرُّوحَ الْقُدُسَ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ) [لوقا ١١: ١١-١٣].

(أَمْ أَيُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ إِذَا سَأَلَهُ ابْنُهُ خُبْزًا، يُعْطِيهِ حَجَرًا؟ وَإِنْ سَأَلَهُ سَمَكَةً، يُعْطِيهِ حَيَّةً؟ فَإِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ تَعْرِفُونَ أَنْ تُعْطُوا أَوْلاَدَكُمْ عَطَايَا جَيِّدَةً، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ أَبُوكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، يَهَبُ خَيْرَاتٍ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ) [متىٰ ٧: ٩- ١١].

وقال إن النصين يتكلمان عن شيء واحد؛ نفس الخبز والحية والحجر والسمكة، ونفس الآب، وهنا الأب السماوي يعطي الروح القدس لمن يطلبه، وهناك في متىٰ يعطي خيرات، متىٰ الإنجيلي إذن يؤكد لنا بذلك شيوع الفهم اليهودي للروح القدس باعتباره عطايا إلهية مباركة. وأضاف طالب الجنان كذلك أن هذا الفهم لا يتعارض بالكلية مع الفهم المسلم، المسلمون يركزون علىٰ ذلك الكائن السماوي الملائكي الجليل الذي يبعثه الله بقوىٰ ممتازة، واليهود يركزون في تلك القوىٰ الممتازة.

أي شيء ممكن لي أن أعلنه الليلة؟

لا شيء غير إرهاقي.

كنت طفلة تقوم بتلوين أشكال الملائكة بالألوان المائية في كراس الرسم، بكل حب وثقة، ولما لم ترَ الملاك الذي تحدثت عنه الجدة؛ تحول اهتمامها المفرط بالملائكة إلىٰ الروح القدس، فهذا ذوق الطفولة وحدسها السليم، كأني رأيت ذلك الروح

القدس، شبيهًا بهم. ولعل طفولتي تشبه طفولة الديانة المسيحية، تلك الفترة الضبابية البكر، التي لم يكن المسيحيون البسطاء فيها، وعلىٰ حسب ما خطر لي، يعبدون الروح القدس.

أمة الله

شخص ما، في زمن ما، وفي هدوء الليل، وعندما لم يكن هناك مارة علىٰ الإطلاق، تلفَّت ووضع ذلك اللقيط في قماطه تحت حائطنا ومضىٰ يواريه الظلام في أستاره. ولكن لا بأس؛ فنحن أنكرناه، وتجاهلنا بكاءه الذي بدا لنا شيطانيًا ومخادعًا، وخاليًا من أوجاع الحياة.

أما اللقيط فهو إنجيل برنابا، الذي وضعه شخص ما تحت حائطنا، والذي أرفضه كما رفضه غيري من المسيحيين في أنحاء الدنيا ممن ينظرون إليه ككتاب شعبي ساذج الحبكة.

ولكن لسوء حظي أني دعيت الآن بالتقوىٰ للنزول من بيتنا لاحتضان هذا اللقيط وهدهدته والنظر في عينيه عن قرب نظرة أمومة.. فهل كان ينقصني هذا؟!

لقد اختارتني صديقتي المبشرة الرائعة (جانيت)، لأكون طرفًا في مناظرة ضدها علىٰ الشبكة، أمثل فيها دور داعية مسلمة شابة

ستبذل جهدها لتجعل للقيط (إنجيل برنابا) نسبًا صادقًا بالبيت المسيحي. ودور هذه الداعية أن تفشل في هذه المناظرة في نهاية الأمر، بطريقة يشعر المتصفِّح الفطن أنها غير مريبة، ولا يمكن أن تكون محل اتفاق. الأمر لا بدَّ أن يبدو مموهًا وذكيًا؛ لذا عليَّ أن أبدو موفقة إلىٰ حد كبير حتىٰ تكون المناظرة في مجملها قوية ومقنعة ومثيرة، عليَّ أن أنال هزيمة واضحة في آخر الأمر، ولكنها غير ساحقة بالدرجة التي تقلل من أهمية المناظرة.

وهذا الأسلوب الشبابي، أسلوب المناظرة المتفق عليها، فرضته حماسة الأفراد، وغيظهم، ورغبتهم في تثبيت العقيدة لدىٰ الشباب المسيحي الذي يحاول المسلمون التأثير فيه من خلال المواقع والوسائط المختلفة، وأنا وافقت علىٰ الاشتراك، رغم أنني لا أشعر براحة كاملة تجاه هذه الطريقة.

وكان لدي خوف من ضمِّ هذا اللقيط، كنت خائفة من أثر الحنان الذي سيضطرني إليه احتضانه والدفاع عنه خلال اندماجي في شخصية الشابة المسلمة الذي سيمتد لأيام، خائفة من أن يهيَّأ لي تحت تأثير هذا الحنان، والنظرة المطولة إلىٰ عينيه عن قرب، أن هناك وجه شبه فيه ولو خفيفًا بالعائلة المسيحية. لم أكن خائفة من عمل العقل، بل خائفة من عمل الملامسة، شيء كخوف الأطباء من العدوىٰ.

وأول ما فكرت فيه في سبيل الإعداد للمناظرة هو اختيار اسم الداعية الشابة، حتىٰ أبدأ في التقمص من بعد ذلك. رأيت ملامحها في فضاء غرفتي، وأخذت نفسًا عميقًا، وأرسلت رسالة جوال لجانيت، قلت فيها: أنا نحيفة، وحاجباي معقودان، وأسناني بيضاء ومنتظمة بشكل رائع، ولا تخلو حقيبتي من أقراص النعناع، ويعيبني أنني أتكلم بسرعة، وأنا (أمة الله)، هذا لقبي.

ومن ردها عليَّ أيقنت أنها أيضًا تعاني من عدم اهتمام الروح القدس بمعالجة قصورنا في استيعاب اللغة الفصحىٰ، فقد فهمتْ كلمة (أمة) باعتبارها تعني الجماعة المترابطة وليس عبدة كما يقصد المسلمون.

تم الاتفاق علىٰ ميعاد المناظرة الساخنة حول إنجيل برنابا بعد عشرة أيام، في مساء يوم الجمعة بعد القادم، وسنكون أنا (أمة الله) وجانيت، وعلىٰ عكس ما سيظن جمهور المناظرة الذي سيتابعنا علىٰ الشبكة، وأغلبيته العظمىٰ من المسيحيين، سنكون جنبًا إلىٰ جنب في مقهىٰ الإنترنت.

هناك فرق بيني وبين جانيت، فأنا مجرد مبتدئة رحبت بمثل هذه المشاركات باعتبارها لعبة ذهنية غير خطرة، هاوية رغبت في أن تحسِّن من خلال تلك المشاركات التمثيلية من قدراتها علىٰ المناقشة والجدل. أما جانيت، فهي شخصية واثقة من نفسها بدرجة عالية في مجال المناظرات، وعندها طموح في هذا المجال.

ثقة جانيت الكبيرة بالفرق بينها وبيني في الخبرة، جعلها تتصل بي وتنصحني هذا النهار عبر الجوال أن أتدرب جيدًا، لأقدم أفضل ما عندي. قالت لي في نهاية المكالمة بكل تحفيز: تألقي. كانت مكالمة عملية وسريعة، ومستفزة نوعًا ما؛ ذلك لأني لا أقبل علىٰ نفسي مهما كانت الغايات سماوية أن تشجعني منافستي علىٰ الاستعداد كأني بليدة.

أجبرني كلامها علىٰ أن أذاكر جيدًا، حتىٰ لا أخرج من هذه المناظرة بامتعاض جانيت من ناحية، وسخرية المتابعين المسيحيين من ناحية ثانية، وغضب المتابعين المسلمين من ناحية ثالثة. وتقمصت شخصية تلك الداعية الشابة المسلمة الوهمية (أمة الله)، وتشربت ثقتها بنفسها، وتحديها، وإصرارها، وصرامتها، ورغبتها في الفوز، وفي الوقت نفسه تماسكت قدر استطاعتي وأنا أحمل اللقيط كي لا أحن إليه حقًا.

(أمة الله) التي تسكنني، أعدت أوراقها جيدًا دفاعًا وهجومًا، والجديد الذي عثرنا عليه أنا وهي، هو دليل (غياب ما لا يتوقع غيابه)؛ صغته ووضعته علىٰ ذاكرة فلاشية لتلقي أمة الله به إلىٰ جانيت ومتابعي المناظرة إن لزم الأمر.

تجاورنا في المقهىٰ، وكنت قلقة نوعًا ما في البدء، لدرجة تمنيت معها، بسبب أي حجة، كأن تصاب جانيت بمغص مفاجئ، أن يتم تأجيل المناظرة، وظننت أن كل أفكاري تلاطمت ودخلت

في بعضها البعض، وحصل اشتباك داخلي حتىٰ لم أعد أعرف كيف يمكنني أن أبدأ؟ وهل بالفعل أنا قادمة للدفاع عن اللقيط؟ هذا بينما كانت جانيت متماسكة تفرقع أصابعها وتحك في فروة رأسها وتطلب مشروبًا باردًا، كأنها قادمة إلىٰ عملها المكتبي الروتيني.

وحدث لي سهو، يشبه السهو الذي حدث لي في الطريق الذي كنت ذاهبة فيه إلىٰ الاغتصاب؛ إذ وجدت نفسي بعد وقت لم أشعر به في مباراة جيدة بدأت بلياقة عالية من المتنافسيْن فيها، وسط جمهور حماسي يكتم أنفاسه. كان أداء جانيت رائعًا متمكنًا يدل علىٰ خبرة حقيقية، وأنا كنت أبذل أقصىٰ ما لدي، لصنع الندية، ولاستخدام لغة أكثر تأثيرًا من لغتها، أصد بها الصلابة التي منحها لها الاعتياد. وكنت سعيدة، سعيدة باستضافتي لـ (أمة الله) داخل نفسي، التي من خلالها اكتشفت أنه يمكنني أن أكون مناظِرة جيدة سريعة البديهة، وجانيت لم تهتز ثقتها بنفسها؛ بل بدت تعرف المنعطفات القادمة في المناظرة وماذا سيقابلنا هنا وهناك، بينما كان يقودني تدفق عجيب يغنيني عن طول النظر، وكل قليل كانت جانيت تشير لي بإصبعها، تستحسن جودة طرحي؛ ردًا منها علىٰ نظراتي شبه المعتذرة عن جودة الطرح.

وفي وسط هذه المعركة الذهنية التي كانت جانيت متفوقة فيها نوعًا ما، وكنت أكثر إجهادًا منها لأني أدافع عما لا أدافع عنه بطبيعتي، كتبت جانيت تستأذن المتابعين لدقيقتين، وقامت بأعصاب

هادئة، وطلبت مني وهي تربت علىٰ كتفي بكل إحساس بالسيطرة، أن أثرثر قليلًا، إلىٰ أن تعود من دورة المياه، وقالت إنه حان وقت ظهوري وكأني فقدت أعصابي نوعًا ما بسبب قوة حجتها وسعة معرفتها.

وذهبتْ وتركتني جالسة يعتريني بعض الغضب من كونها تشهد لنفسها أنها أفضل مني، وكنت أريد أن أقول لها يجب أن تذكري أن أفضليتك هي شيء متفق عليه، فلا تعامليني هكذا.

وفكَّرت في غيابها في دورة المياه في وضع ما خزنته (أمة الله) علىٰ الذاكرة الفلاشية، عن غياب ما لا يُتوقع غيابه، وأنا أعشم في أن يمثِّل بشكل أو بآخر مباغتةً حقيقيةً لجانيت، تختبر فيها إمكانياتها، حيث إن ما فيه هو بعيد عن المسائل المعتادة في النقاش حول ذلك الإنجيل، لم لا؟ هي تطلب مني التألق، وتؤمن بأنني سأهزم منها لو قدَّمت أفضل ما عندي، أكثر من إيمانها بتواطئي معها علىٰ انتصارها، وبيد ترتعش من الغيرة وضعت الذاكرة في الكمبيوتر، وأنزلت ما عليها وأنا أضغط علىٰ أسناني:

أرجو أن يتسع صدرك للتمهيد الطويل للفكرة التي أريد أن أطرحها عليكِ، وأن تقبلي أن يكون في حوارنا فضاء للتخيل.

لو فتحنا -يا جانيت- مخبأ سريًا يقع في منطقة منعزلة كانت مهدًا لجماعة دينية سرية منذ أكثر من قرن من الزمن، وفتشنا هذا المخبأ الغامض الذي كان مليئًا بأشياء قديمة، حتىٰ وجدنا أوراقًا

صفراء عتيقة بخط اليد، لكاتب مجهول يتضح من سطوره أنه منخرط في تلك الجماعة في السنوات الأولىٰ من حياتها الغامضة، ويتضح أيضًا أنه مؤمن فقط، وحتىٰ النخاع، بنبوة المؤسس العظيم وحده، ويرفض تسمية أي أحد يأتي من بعده من قادة الجماعة نبيًا. وقد كتب ما يفيد التنديد بنبوة أحد القادة الذي ارتفعت الأصوات تعلنه نبيًا بحجم المؤسس، وليكن اسمه (الثاني)، وهذا الرجل التقليدي الغيور الذي لا يقبل المتغيرات، ولديه تمسك شديد بالأصول الأولىٰ، لم يكتب شيئًا عن نبوة آخر، هذا الآخر، أو (الثالث)، نعرف يقينًا أن الأمر قد انتهىٰ بتسميته نبيًا أيضًا.

من الذكاء -يا جانيت- أن لا نصدق أن هذا الرجل الغيور المعايش للأحداث يومًا بيوم، حينما كتب عن إيمانه العنيد والعميق بنبي واحد فقط، قد نسي أن يبطل نبوة الثالث في سطوره الموجوعة، ولم يبق إلَّا احتمالان؛ الأول هو أن هذه الأوراق الصفراء الملطخة قد كتِبت قبل أن يُعلن الثالث نبيًا أو قبل أن تعلو أصوات مطالبة بذلك، والثاني هو أن هذه الأوراق ملفقة أراد من لفَّقها أن يضيف عليها قيمة تاريخية، وهو يؤمن بأن دعاوىٰ نبوة الثالث ظهرت بعد دعاوىٰ نبوة الثاني، وعلىٰ هذا قد خطَّط لأوراقه تاريخًا كأنها بدأت وانتهت في الفترة التي اشتعل فيها الجدل علىٰ نبوة الثاني وقبل أن تعلو الأصوات بنبوة الثالث؛ لذا هو مضطر لأن يتكلم كأي مؤرخ عاصر شيئًا لم يكتمل، لن يفهم الأذكياء بما فيهم أنتِ غير هذا يا جانيت.

هناك -يا عزيزتي- غياب غريب في هذا الإنجيل؛ فالإنجيل ذو الاتجاه التوحيدي، به علىٰ لسان المسيح براءة ممن ادَّعوا له الألوهية تعبر عن انزعاج عميق، وليس به علىٰ لسانه براءة ممن ادعوا ألوهية الروح القدس، ولم يأتِ نص هذا الإنجيل علىٰ ذكر تلك الألوهية بأي شكل ولا علىٰ ذكر التثليث. فعلًا يبدو من كتب هذا الإنجيل رجلًا لم يسمع بالثالوث، لا رجلًا يتجاهله.

أنتِ قرأتِ هذه الإنجيل مرات ومرات ولم يلفت انتباهك ذلك أبدًا؟! يجب أن تعترفي بأن الأمر غريب فعلًا، فأي رافض للإيمان المسيحي، سواء كان متبحرًا أو لديه فكرة عامة، منزعجًا جدًّا أو مستاءً نوعًا ما، سيبدأ ويختم طعنه في العقيدة المسيحية بالطعن في عقيدة التثليث؛ مما يستلزم إنكار ألوهية الروح القدس والتعريض بتلك الألوهية ولو بجملة واحدة، وهو أمر مما يستحيل توقع الغفلة عنه من رجل درس وفكَّر ودقَّق، حتىٰ كتب هذا الإنجيل المصنَّف مسيحيًا ككتاب ملفَّق، مثلما لن نتوقع أن يغيب إعلان نبوة الثالث عن عضو الجماعة صاحب الأوراق الصفراء التي وجدت في قبو حينما يكتب.

وليس أمامنا إلا أن نفرض نفس ما افترضنا بشأن مخطوطة الأخوية الدينية التي وجدنا أوراقًا تخصها، الفرضية الأولىٰ الخطيرة أن الفترة التي كُتِب فيها الإنجيل التوحيدي الذي يؤمن بإله واحد فقط، أو كُتِب فيها الأصل الذي أخذ منه هذا الإنجيل، قد

سبقت ظهور أي جماعة مسيحية مؤمنة بألوهية الروح القدس؛ لذا لم يظهر في إنجيل برنابا أي تنديد علىٰ لسان المسيح أو لسان المدعو برنابا بهذه الألوهية المدَّعاة للروح القدس، وهذه فرضية لن ترضيكِ يا جانيت، وأمامك الفرضية الثانية، وهي مريرة أيضًا فأين تذهبين؟! الفرضية الثانية هي أن الإنجيل مزور وملفق، ومن لفقه كان متأنيًا، وعلىٰ دراية بتاريخ اللاهوت وتطور العقيدة والحياة الدينية في القرون الأولىٰ؛ لذا لم يتورط في نفي ألوهية الروح القدس، كما نفىٰ ألوهية المسيح علىٰ لسان المسيح؛ لأنه لم يثبت لديه بدليل مقنع أنه قد آمنت جماعة ما من المسيحيين بألوهية الروح القدس في حياة المسيح، وبناءً عليه فستكون سقطة كبيرة أن يهاجم فكرة لا دليل مقنعًا علىٰ ظهورها في تلك الفترة.

أنت غير مضطرة للقول إن رجلًا ما درس الأمر قبل أن يؤلف إنجيلًا، وثبت عنده أنه لم يشتهر في حياة المسيح ولسنوات بعد صعوده، أي مقولة عن ألوهية الروح القدس وبناءً عليه عن التثليث، فهذا سيكون مرًّا في فمك كالحصرم، ولكن هذا المرَّ وارد جدًّا، وله قرائن، مثل هذا النص: (**فَحَدَثَ فِيمَا كَانَ أَبُلُّوسُ فِي كُورِنْثُوسَ، أَنَّ بُولُسَ بَعْدَ مَا اجْتَازَ فِي النَّوَاحِي الْعَالِيَةِ جَاءَ إِلَىٰ أَفَسُسَ. فَإِذْ وَجَدَ تَلاَمِيذَ قَالَ لَهُمْ: «هَلْ قَبِلْتُمُ الرُّوحَ الْقُدُسَ لَمَّا آمَنْتُمْ؟» قَالُوا لَهُ: «وَلاَ سَمِعْنَا أَنَّهُ يُوجَدُ الرُّوحُ الْقُدُسُ**) [أعمال الرسل ١٩ : ١-٢]، واضح جدًّا أن هؤلاء المسيحيين البسطاء الأبرياء غير

المدَّعين وغير المتحفِّظين، الذين لا يجيدون فن المناظرة مثلما تجيدينه، لا يعبدون الروح القدس؛ بل لم يقبلوه، بل لم يسمعوا بوجوده، ورغم هذا فهم تلاميذ ومؤمنون كما اعتبرهم بولس، وهم ليسوا ثلاثة أو أربعة في حالة متأخرة من نقص المعلومات الدينية الضرورية، إنهم نحو اثني عشر تلميذًا، وهم لا يقيمون في الأدغال، بل في أفسس، أفسس التي أقام بولس فيها ودعا من خريف سنه ٥٤م إلىٰ ربيع سنه ٥٧م، وهؤلاء يعرفون معمودية يوحنا واعتمدوا بها، وليس من المعقول أن يعرفوا معمودية يوحنا ولا يعرفون ربهم نفسه، لا يوجد أي متدين بأي دين لا يعرف الرب في دينه ويخضع لطقوس هذا الدين، هذا غير متخيل ومن الصعب جدًّا تمريره؛ كان من الطبيعي لو أن بولس يضمر في قلبه بالضبط العقيدة نفسها التي يضمرها المسيحي في القرون التالية، أن يقول لهؤلاء متعجبًا: فمن عبدتم؟ بدلًا من قوله: فبماذا اعتمدتم؟ إنه، ببساطة، لم يقل لهم أي شيء عن ألوهية الروح القدس، أي شيء علىٰ الإطلاق.

عدم علم هؤلاء بوجود الروح القدس، وكذلك رد فعل بولس الذي لم يتضمن أي تعليم بخصوص ألوهية الروح القدس، يجعلني أشعر أن هذا الإنجيل، إنجيل برنابا، أو الأصل الذي خرجت منه النسخة الموجودة حاليًا، عاصر هذه الفترة التي كان يمكن للمؤمنين فيها أن لا يعبدوا الروح القدس دون أن يتعرضوا للمحاكمة الكنسية

والاتهام بالهرطقة، هذا الإنجيل ليس بالغ الأهمية لديَّ كمسلمة كما تعتقدين، واهتمامي به بحثي بحت، وهذا الخلو المثير فيه، يجعلني مقتنعة كباحثة إلىٰ حدٍّ معقول بأنه يعود لأصل قديم، يؤرخ لفترة ضبابية بِكْر لم يكن فيها الروح القدس إلهًا.

عندما عادت جانيت، وانغمست في القراءة، وبعد أن انتهت من قراءة كل ما كتبتُ، لم تتعامل معي مباشرة، كأنها نسيت أني جالسة بجوارها، اكتفت بالتعامل عبر الشاشة، وفقدت في ردها هذه الكياسة التي تضفيها عليها ثقتها بنفسها، وبدت محتدة، تتهمني بالثرثرة خارج الموضوع، والخلط، وقالت إنها شاركت في هذه المناظرة للرد علىٰ ترهات كاتب هذا الإنجيل المريض، وليس للرد علىٰ الترهات الذي فاته أن يكتبها، وإنه ليس عليها أن تشكره علىٰ أنه لم يطعن في ألوهية الروح القدس، وليس عليها من ناحية أخرىٰ أن توبخه علىٰ أنه لم يستوفِ عريضة الاتهام علىٰ النموذج المقرر عند المسلمين.

رددت عليها بأن المطلوب منها أن تنظر في هذا الخلو بشيء من التأمل، وجاملتها لأرطب الجو قليلًا، وقلت لها: أنت ذكية، وسريعة البديهة، وربما تفضلين العودة للبيت والتفكير في الأمر بمفردك، أنت غير قادرة علىٰ أن تطرحي فرضية النسيان، تعلمين أنه من غير المنطقي أن نقول: لعل كاتب الإنجيل نسي أن يتكلم عن ألوهية الروح القدس بشكل سلبي وكذلك نسي الكلام عن

التثليث؛ ذلك لأنك تعلمين أن الآلاف من الكتب في أنحاء الأرض التي تخصصت في نقد العقيدة المسيحية التي استقر مضمونها في القرن الرابع، لم يفت أي كتاب منها سواء بالتحليل أو الإيجاز أن يتعرض لكل من عقيدة ألوهية الروح القدس وعقيدة الثالوث.

بعد أن خرجنا من المقهىٰ وبيننا نفور هادئ، كان عليّ أن أؤكد لها أنني وصلت لدرجة مَرضيَّة من التقمص هذا المساء؛ وهذا لأن لدي موهبة تمثيل وتقليد لا تعرف عنها هي شيئًا، ولو فكَّرت في التمثيل لربما وصلت إلىٰ الأستاذية، فهزت رأسها وابتسمت واستغلَّتْ هذه الفرصة لتغيير الموضوع فدعتني للتفكير في التمثيل علىٰ مسرح الكنيسة، ثم تصافحنا ومضت هي أمامي تتلفت وهي تحتضن أوراقها.

كانت تمضي أمامي وهي تثير فيّ بعض الشعور بالشفقة بنظارتها السميكة، وبنطلونها الجينز بثنيته الكبيرة، وشعر شاربها، وصفعة الشك التي علىٰ وجه يحرض الناس علىٰ اليقين. ولكن كان في قلبي سرور لا ينكر؛ كأني انتقمت فيها رغم بساطتها من صلف الخبرة، وكذلك انتقمت فيها من كل إنسان وهبه الله ملامح جادة تبعث علىٰ الثقة، يعمل في الغش بجدية فاقدًا من التعود أي شعور بالخجل.

مخطوطات بيتر

رجع الشخص الحيوي الوحيد في هذا البيت لطبيعته، عاد مفعمًا بالحيوية والإقبال علىٰ الحياة والرغبة في التجريب واكتساب خبرات جديدة. هو الشخص الوحيد هنا الذي له أن يكتب مذكراته وليس أنا؛ لأن لديه ذكريات جديرة بالتوثيق. والعبرة ليست بتراكم النجاحات، وليست بالتحقيق، مطلقًا؛ الحقيقة أنه لا داعي لوجود عبرة من الأساس.

عاد أخي (بيتر) للحياة الحقيقية بعد انقطاع لأكثر من عام، رجع لما يمليه عليه قلبه، ليحيا حياة أخرىٰ موازية للحياة العملية القائمة علىٰ المنطق والحسابات الدقيقة، حياة خارج الروتين والنظام. وإن كان قد دخل هذه المرة في حالة لا تتصف بالغرابة والتفرد كمعظم الحالات التي عاشها، كما أنها لا تخلو من الدقة التي في الحياة العملية رغم طبيعتها الفنية، فتحميض الصور ليس عملًا طائشًا؛ جهَّز معمل تحميض صور في غرفة فوق سطح بيتنا،

وانهمك في متابعة الحركة الفنية الفوتوغرافية، وأخذ يعدد أسماء الرواد في هذا المجال، وامتلأت حوائط غرفته بأعمال رائعة حقًا، وارتدىٰ (بيريه) أسود من الصوف كالذي يرتديه الأدباء؛ وهذا هو الشيء المثير حقًا في الأمر: هذا التقمص الذي يمتد حتىٰ يشمل تفاصيل الزي المناسب للشخصية الجديدة. هذا الشاب الذكي الحيوي الذي اقترب من الثلاثين وما زال لا ينظر خلفه ليلحظ أنه يبدِّل في الاهتمامات والهوايات منذ طفولته دون أن يرسو علىٰ بر ودون أن يحقق أي تراكم في أي شيء، آمنت الآن بصدقه مع نفسه، بعد أن آمنت بالقوة التدميرية للملل والقوة التدميرية لسيطرة فكرة (الجدوىٰ). عائلتنا تخجل من أن تصرح بأنها تفعل شيئًا علىٰ سبيل (التسلية)، باستثناء أخي بيتر، الذي عادت له نفس الحيوية والحماسة التي عرفتها فيه في أدوار متعددة، كان يبدو مع كل منها أنه سيستمر معه للأبد: تصوف، تنويم مغناطيسي، تحضير أرواح، مخابرات، بحث عن الكنوز، بحث عن الآثار، علم الفراسة، اللغات الشرقية القديمة، والبحث عن المخطوطات؛ حياة حافلة مثيرة تستحق أن يكتب ذكرياتها إذا تخلَّىٰ عن حساسيته من الإخفاقات التي قابلته، وإذا تخلَّىٰ عنه ضعف ذاكرته.

كله كوم ومرحلة الآثار والمخطوطات كوم وحدها، هي أكثر المراحل التي ساقني فيها خلفه؛ لأنها كانت تلبي حاجة ماسة في صدري غير الشغف بالاكتشاف. ما زلت أذكر بحثه المحموم

المستمر بالساعات في المواقع والكتب والمراجع عن معلومات عن الخواجة (ميريت) تحديدًا، الذي كان له اهتمام بالمخطوطات القبطية ونسخ الأناجيل ثم انغمس بعد ذلك في علم المصريات، كان لدىٰ بيتر حدس بأن (ميريت) باشا قد احتفظ ببعض المخطوطات القبطية في مصر بأحد البيوت القديمة بمنطقة (سقارة)، التي أشرف علىٰ فريق عمل للتنقيب عن الآثار فيها. وعندما صرَّح لي بهذا الحدس انسقت وراءه، وتمنيت أن يوفق في الوصول إلىٰ شيء ما، ولا أعرف كيف اقتنعت!

كان الأمر مثيرًا حقًا، فكرة التتبع العنيد لأقوال مختلطة ومتناقضة لأشخاص من مستويات اجتماعية وثقافية مختلفة، وشرب الشاي الثقيل في الحقول، والجلوس إلىٰ خدام أضرحة غير مشهورة، والوقوف علىٰ بقايا بسيطة لبيوت ومعابد وكنائس نبتت فيها الحشائش وزحفت علىٰ ترابها الثعابين، وتصوير مواقع تربطها الذاكرة الشعبية والعرف بحياة أنبياء، ودخول مغارات عبر طرق وعرة وتسليط الكشاف الضوئي في الزوايا المعتمة بحثًا عن جرار فخارية، والوقوف علىٰ جبانات عتيقة مهجورة ليلًا لمساءلة الصمت والأرواح الهائمة، من أجل الوصول إلىٰ شيء ما مختبئ ومستقر منذ قرون، ربما يقود لشيء خطير؛ شيء في قمة الإثارة. كنت فعلًا أستمتع بما يقوله عندما يعودٍ وعلىٰ بنطلونه من الخلف التراب، أستمتع بالطريقة الخاصة التي يعبر بها عن عالم الأسرار الخفية.

عشت من خلال بيتر حلمًا جميلًا، تتجدد حلقاته ومفاجآته، حتىٰ دخلنا لحظة الذروة المدهشة، عندما بدا أن يد بيتر المتعبة مسكت أخيرًا بشيء حقيقي في هذا الضباب؛ فقد عاد ليلًا بوجه رائق، بوجه عليه فرح سماوي، يحاول أن يخفي خبرًا سعيدًا عني، لكنه في النهاية وتحت إلحاحي لم يستطع، أخبرني بعد ممانعة لطيفة، وبعد مكر وإنكار من النوع الفاشل، وبعد عتاب علىٰ كل مرة كنت أشكك فيها في كل باب يطرقه وأقلل من أهمية كل حكاية يسمعها، وبعد تأنيب علىٰ التشاؤم الغريزي عندي وقلة الصبر، أخبرني وهو يشد علىٰ يديَّ، بأن هناك مفاجئة جبارة للمسيحية وللمسيحيين حول العالم، للمسيحية والمسيحيين حول العالم؟! نعم، وربما لا تقل في أهميتها عن اعتناق قسطنطين للمسيحية، وربما لا تقل في وزنها عن مقررات المجامع، دارت بي الدنيا وأنا أسمع منه هذا الكلام، وبلعت ريقي وهو يقول إنه سعىٰ للوصول لمخطوطات ميريت ولكنه لم ينجح إلىٰ الآن، غير أنه قد حدث له ما يحدث مع كل باحث عنيد: وجد شيئًا غير الذي كان يطلبه، إنها مكافأة العليّ للمكتشفين، فهناك مغارة نائية، يبدو أن جماعة من المسيحيين لجأوا إليها هاربين من العذاب في عصر الاضطهاد، وأخذوا معهم جرة فخارية وضعوا بها أوراقًا هامة، وقعت هذه الأوراق في يد رجل مسلم غريب الأطوار من أهل الخلوة، حملها معه من المغارة بعد أن اختلىٰ فيها أربعين يومًا عاش فيها علىٰ الماء والخبز الناشف. هذا الصوفي المسلم مات بعد فترة قليلة

وهي بحوزته في بيته الفقير الذي ضربت الرطوبة حوائطه الجيرية، كانت تحت فرشته علىٰ سريره المصنوع من جريد النخل، وقد باعت أخته العجوز هذه الأوراق لرجل مسيحي بسيط من زوار الشيخ المسلم (المتوحِّد)، باعتها بالقليل، وكانت قد أوشكت أن تضعها بين الزير وحامله من أجل أن تسنده. وهذا المسيحي بدوره باعها لمن يعرف قيمتها أكثر منه. وها هو بيتر علىٰ وشك أن يشتريها، ثلاث مخطوطات؛ الأولىٰ هي مخطوطة تنتمي للقرن الأول الميلادي بها تصريح كامل علىٰ لسان المسيح بألوهيته وبعقيدة الثالوث، كما أقرَّت وقنِّنت بعد ذلك بالقرن الرابع الميلادي، والمخطوطتان الأخريان وجدتا معها في الجرة نفسها والكهف نفسه، ولكنهما تسبقان زمنها، وبحاجة لصيانة ومعالجة، وبين سطورهما المتآكلة جدًّا كلمات كنبوءة غير مبهمة عن الثلاثة أقانيم؛ الآب والابن والروح القدس. إذن أخذ الهاربون المغمورون إلىٰ المغارة ما هو مطلوب بالضبط، قدَّموا أحسن هدية لأحفادهم في القرن الحادي والعشرين. لقد كان في قمة النشوة وهو يؤكد القيمة الدفاعية للمخطوطات، ويؤكد أنها قد تحول كثيرًا من أعداء الرب يسوع إلىٰ خدام للكرازة المسيحية. وهذا حقيقي ولا يحتاج لتأكيده؛ فأنا أعرف قيمة أن تخرج لي وللعالم تلك المخطوطات، فمنذ طفولتي وأنا أعشم في أنني سأستوعب يومًا عقيدة التثليث استيعابًا كاملًا، مثلما بدأت أستوعب مبادئ (جدول الضرب)، حتىٰ أتخلص من الصورة المسيئة التي

علقت بذهني لثلاثة أطياف يمرون ببعضهم بعضًا وينفكون ويلتئمون بشكل حيوي وإشعاعي، والتي كانت تسبب لي شعورًا ما بالذنب، وكبرت وظلت الصورة تلازمني، حتىٰ بعد أن فهمت (التفاضل والتكامل)؛ فإذا لم يكن هناك وسيلة لشرح الثالوث لتهدأ خيالاتي البصرية المذنبة، فأهلًا وسهلًا بدليل نصي واضح يزيل عندي أي شك في صحة الثالوث، بدلًا من الأدلة النصية المخلخلة التي لا أستطيع أن أضع نفسي عليها كما يضع الإنسان نفسه علىٰ كرسي ثابت ويطمئن.

غلبني في البدء إحساس بعدم التصديق، حرصت علىٰ أن لا يبدو علىٰ ملامحي، ثم شعرت بشيء من الفرحة المخلوطة بالقلق والتوجس لضخامة الأمر وحجم تداعياته؛ فأخي الشاب الحماسي سيساهم في فتح مرحلة جديدة من المد المسيحي، والخبر الذي عنده قد يتسبب في موت بعض القساوسة والآباء من الفرحة، وبخاصة من يتصدون للمناظرات والدفاع عن العقيدة. شعرت بشيء كبير من الفخر به وهو لا خبرة له طويلة بالمخطوطات مهما وضعت في اعتباري انكبابه في الفترة الماضية علىٰ المواقع العربية والأجنبية المتخصصة وزيارته للمتاحف، بالفخر من كون الرب شاء أن يضع ذلك الكنز تحت يد هذا الشاب الذكي الحيوي الذي ينقصه التأني الذي يتصف به الكبار وتدبرهم للأمور، اختاره دون المتخصصين الذين يفنون أعمارهم بحثًا عن رقعة صغيرة هنا

وهناك. سلسلة عجيبة بدأت بمسيحيين مغمورين التجأوا لكهف، ثم شيخ صوفي من أهل الخلوة بعد عدة قرون، لامرأة عجوز ستسند بالمخطوطات زيرها، لمسيحي بسيط يعمل في صناعة الخوص، ومنه إلىٰ تاجر فضيات مسيحي، وانتهت ببيتر. أنا تقريبًا نمت يومها وأنا لا أشعر أن جسدي علىٰ الفراش، بل محلقة، وكنت أشعر بالخجل من نفسي كوني شاكَّة، واستنتجت وأنا أراجع تلك السلسلة من التنقلات أن الرب يتحرَّك ليعلن نفسه، وهذه ليست خبرته الأولىٰ في الانطلاق من مغارة!

ومرت أيام هادئة هانئة، كان كثيرًا ما يخط فيها علىٰ أوراقه بالعربية والإنجليزية بخط جميل (مخطوطات بيتر)، علىٰ ما يبدو أنه بدأ يحلم بتدوين اسمه في مراجع اللاهوت العالمية، وتأكدت من أن هذا ما يدور بذهنه عندما ذهب لأحد الرسامين ليرسم له تلك الصورة الزيتية التي يبدو فيها كأنه من العصور الوسطىٰ.

وفي ليلة ملت عليه وهو منكب باطمئنان علىٰ مرجع ضخم يتحدث عن مقارنة المخطوطات، وقد كنت أظن أنه سيملُّ من ذلك بعد أن أوشك علىٰ أن يمتلك ما لم يمتلكه غيره، وسألته عن بعض التفاصيل، فلم يجبني بما يشبع الفضول، فظننت أنه اختار التحفظ حتىٰ يملك كنزه في يده، فضغطت عليه أكثر، وسألته إن كان قد زار تلك المغارة التي وُجدت فيها المخطوطات وخصوصًا أنه مولع بدخول المغارات؟ فابتسم ونفىٰ وتكلم قليلًا بتلقائية، فانتفضت

شكوكي مرة ثانية، فقد بدا لي علىٰ غير طباعه التي لن تسمح له بالصبر حتىٰ علىٰ رؤية المغارة. شعرت أنه تم ترويضه وتعويده علىٰ الصبر والاكتفاء بالقليل من المعلومات. سألته عن تفاصيل، ولم يكن عنده تفاصيل، باستثناء السعر المطلوب، وأن لغة مخطوطة المسيح أرامية وأن الأخريين عبريتان، وأنه شاهد صورًا فوتوغرافية للمخطوطات، وألححت عليه ليدلني كيف عرف أنها مخطوطات غير مزورة، فقال إنه متأكد من أنها غير مزورة؛ لأنه غير ساذج حتىٰ يشتري مخطوطات مزورة، دون أن يوضح لي بشكل علمي يليق برجل منكب علىٰ مرجع تلك الأسباب التي تجعله متأكدًا، وألححت عليه لمعرفة إذا ما كان قد وصل للمخطوطات عن طريق أشخاص موثوق بهم، سألته عن الحلقة التي لم يذكرها بين المسيحي بائع الفضيات وبينه، فبدا عليه أنه يكره الإجابة علىٰ هذا السؤال وتألم منه، كأني دست علىٰ قدمه، فأجابني بعد أن اتهمني بالوسوسة والتشاؤم والشك في كل شيء، أجاب الإجابة التي نزلت بمعنوياتي للحضيض، فالشخص الموثوق به الذي يتوسط في الصفقة بين بيتر وتاجر الفضيات هو (إدوارد).

أول ما نطق بالاسم شعرت بهزيمة وخيبة أمل؛ فهذا الشيء الضخم العبقري الذي سيغير مجرىٰ التاريخ الديني انحشر به إدوارد أكثر أصدقاء أخي تفاهة، الحالم السطحي الذي يريد أن يصعد بسرعة الصاروخ، إدوارد الذي تخبَّط كثيرًا في حكايات متتالية عن

مشاريع وصفقات وكاد من قبل أن يعطي رقم حسابه لأرملة الحاكم الأفريقي الوهمية لتحوّل عليه ملايين الدولارات. وقع بيتر إذن ضحية صاحبه الأفاق الذي يجمع بين حسن المظهر والتغفيل، ولا أعرف سر إيمان أخي بهذا الإنسان المستفز وبإمكانياته.

من ساعتها رجحت في الأمر أنه أكذوبة، وكنت أتمنىٰ أن يثبت العكس. وعشت موزعة بين حذري وحلمي، شجعته علىٰ الاستمرار ولكن بحذر، استطعت أن أشوش علىٰ تفاؤله، نبَّهت عليه ألَّا يدفع المبلغ المطلوب قبل أن يستلم المخطوطات ويتأكد من أصالتها، ولا يدفع أي عربون يطلبونه لربط الكلام، وبالفعل عاش بعد ما سمعه من الغرائب كالمغارة وشيخ الخلوة في أجواء أخرىٰ، أجواء المدينة الحديثة والتفاوض. وبالفعل رفض تحت تأثيري أن يدفع المبلغ المطلوب قبل الاستلام والفحص، ثم رفض أن يدفع العربون، وغرم ثمن الطعام بمطاعم كباب ومطاعم وجبات سريعة، ومشروبات علىٰ المقاهي، وقضىٰ أمسية أخيرة مع إدوارد ورجل المخطوطات أو تاجر الفضيَّات أو (مستر إكس) كما أفضل أن أسميه، وهما يحاولان فيها إقناعه بدفع ربع القيمة مقابل حصوله علىٰ المخطوطات، علىٰ أن يدفع الباقي بعد فحصه لها لدىٰ أي جهة موثوقة، ورفض بناءً علىٰ (زنّي) علىٰ أذنيه وكان يتمنىٰ ألَّا يرفض، وعاد وهو يسعل من تدخين الشيشة التي تعلمها

منهما، عاد عصبيًّا يتهمني بتشكيكه في الرجلين، وأنني سأكون سببًا في ضياع هذا الكنز عليه وعلىٰ كنيستنا؛ لأنهما صرَّحا له وهو يودعهما بعد أن دفع حساب المشروبات كالعادة، بأن خبيرًا ألمانيًّا تواصل معهما عبر الإنترنت، وسيأتي قريبًا جدًّا للمعاينة والمفاوضة علىٰ الشراء، وهو علىٰ استعداد لدفع نصف الثمن كعربون وليس الربع، وسألني من باب التبكيت: ماذا لو عرف ثري مسلم أو يهودي بخبر المخطوطات فاشتراها وحرقها؟ وماذا سنقول للرب وقتها؟ وبدأ يتسرب إليَّ الإحساس بالذنب والظن بأنني ربما وقعت فريسة لمكر الشيطان وهو الذي قادني لهذا التصلُّب، ووقفت صامتة وهو يكلمني عن رب المجد ورائحته كلها دخان شيشة، ونمت وأنا متكدرة نوعًا ما؛ ذلك لأني أشعر بالفعل بالحاجة الماسة إلىٰ أدلة نصية غير مخلخلة علىٰ الثالوث، فالأدلة النصية علىٰ (الثالوث) المستخرجة من العهد الجديد تذكرني بكرسي عم (نصحي) بوَّابنا، كلما رآني أنتظر قليلًا قريبًا من باب غرفته الذي وضع عنده كرسيه ذا الثلاثة أرجل، دعاني للجلوس عليه بدلًا من وقوفي، فأضطر للجلوس قليلًا إلىٰ أن ينزل من أنتظره استجابة لإلحاح عم (نصحي)، ثم أضطر لمساعدة الكرسي في أداء وظيفته، أي لا أعتمد عليه اعتمادًا كليًّا كما يفعل الناس مع كرسي له أربعة أرجل، إنما أعيد توزيع ثقلي بطريقة تحقق التوازن، مراعاة للعم (نصحي). **والأدلة النصية علىٰ الثالوث، باستثناء فاصلة يوحنا**

الرائعة[1]، والدخيلة على الكتاب، تشبه هذا الكرسي، هي في حاجة إلىٰ مساعدة من يستخدمها من المسيحيين لتؤدي وظيفتها. المستخدمون لا يعتمدون عليها اعتمادًا كليًّا، إنما يعيدون توزيع أثقالهم بطريقة تحقق الاتزان، ويتبادلون تحت تأثير الإيمان ادعاء الراحة والاتكال.

وعرفت من بيتر قبل ظهر اليوم التالي خبرًا كالصاعقة، أسوأ كثيرًا من أن يصلنا خبر إتمام الصفقة مع الخبير الألماني، ولو دخن بيتر بعض أحجار الشيشة الإضافية بالأمس لعرف الأخبار طازجة، ببث مباشر من موقع الحدث، فقد تم القبض علىٰ إدوارد والرجل الآخر (مستر إكس) ورميا بسيارة الشرطة، ليس بسبب حيازة المخطوطات، ولا بسبب تهديد الوحدة الوطنية؛ ولكن لأن (مستر

---

(١) (فَإِنَّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ فِي السَّمَاءِ هُمْ ثَلاَثَةٌ: الآبُ، وَالْكَلِمَةُ، وَالرُّوحُ الْقُدُسُ. وَهؤُلاَءِ الثَّلاَثَةُ هُمْ وَاحِدٌ. وَالَّذِينَ يَشْهَدُونَ فِي الأَرْضِ هُمْ ثَلاَثَةٌ: الرُّوحُ، وَالْمَاءُ، وَالدَّمُ. وَالثَّلاَثَةُ هُمْ فِي الْوَاحِدِ). ولا يختلف العلماء المعتبرون علىٰ كون النص مزيفًا قد ظهر في مخطوطات قليلة ومتأخرة، بينما غاب في مخطوطات كثيرة ومبكرة، ولم يقتبسها الآباء اليونانيون في تفاسيرهم لرسالة يوحنا أو في ردودهم علىٰ الطاعنين. وتقول عنها دائرة المعارف الكتابية:

وقد حدثت أحيانًا بعض الإضافات لتدعيم فكر لاهوتي، كما حدث في إضافة عبارة «والذين يشهدون في السماء هم ثلاثة» [يوحنا ١٥ : ٧] حيث إن هذه العبارة لا توجد في أي مخطوطة يونانية ترجع إلىٰ ما قبل القرن الخامس عشر، ولعل هذه العبارة جاءت أصلًا في تعليق هامشي في مخطوطة لاتينية، وليس كإضافة مقصودة إلىٰ نص الكتاب المقدس، ثم أدخلها أحد النسَّاخ في صلب النص.

إكس) الغامض، أعجب منذ فترة بحيوية إدوارد وتفانيه وطاعته العمياء، واستعان به للعمل معًا في تأشيرات حج مزورة! إدوارد وتأشيرات حج مزورة!

المضحك أن مستر إكس هذا الذي يدعي امتلاكه للمخطوطات العظيمة، أي من ساعده إدوارد في موضوع تأشيرات الحج، اتضح أنه شخص مسلم علىٰ عكس ما تم إظهاره لأخي، حيث حلف أمام أخي بالمسيح الحي وحلف بالعذراء من أجل أن يسبك الدور. لقد أقنع هذا الرجل إدوارد بأن أخي لن يقتنع بشراء المخطوطات إن عرف أنه مسلم، وهو رجل منطقي جدًّا في هذا الكلام، ولكن ما حيَّرني هو كيف اقتنع إدوارد بأن مسلمًا ما حتىٰ لو كان لا يركعها -علىٰ قول المسلمين- سيثبت التثليث وسيظل علىٰ إسلامه؟ هذا غباء غير عادي، طول وعرض ووسامة ولسان علىٰ مخ طفل؛ كدت أموت ضحكًا لهذه المفارقة، فالحاج أحمد كما أسماه أصحاب الشكاوىٰ هو إدوارد، إدوارد المسيحي يسمسر في تأشيرات حج للمسلمين، وفاروق المسلم يبيع مخطوطات عن الثالوث، الوحدة الوطنية بخير!

ثبت أن إدوارد لا علم له بمسألة التزوير، مجرد مساعد يتحرك بناءً علىٰ التعليمات ويقابل الزبائن، ونفعه كونه مسيحيًّا، حيث اعتبر رجال التحقيق موضوعه طرفة. وقد وقف بيتر مع إدوارد ودفع له مبلغ الكفالة. ولقد أشفقت علىٰ بيتر وهو ينزل علىٰ سلم

النيابة ومعه إدوارد الذي بان عليه الاكتئاب ونبت شعر لحيته، فرغم كل ما حدث إلَّا أن أخي سأله بصوت خجول عن المخطوطات، فما زاد إدوارد عن كلمتين بصوت بليد مرهق: فاروق كما ترىٰ نصَّاب. كنت بجانبه، وقد أوجع قلبي سؤال أخي، وأوجعت قلبي غمضة عينه اللاإرادية عندما سمع الكلمتين. ولفترة ما امتنع إدوارد عن زيارتنا أو حتىٰ التصفير له من الشارع، ولفترة ما امتنع أخي عن النظر في عيني، وذلك بعد أن قال ما علىٰ المسيحي الجيد أن يقوله في موقف صعب كهذا: (المسيحية ليست بحاجة إلىٰ هذه المخطوطات).

الرب لم يتحرك إذن ليعلن نفسه منطلقًا من مغارة؛ شيء مؤسف. مرَّ الأمر عليَّ مرور الهزيمة الثقيلة، فأخي لم يكن يتحرَّق لشراء شيء له قيمة تاريخية، إنما كان يشتري دليلًا، دليلًا شبَّه قيمته باعتناق قسطنطين للمسيحية. أفهم جيدًا أن يشتري مسلم مخطوطة تنتمي لعهد محمد بها سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ بمبلغ باهظ، لكنه لن يشتري دليلًا نصيًّا علىٰ وحدانية الله، ولن يفتش عنه طالما أن توحيد الله ساطع بالقرآن، أما نحن ففتشنا بلهفة في مخطوطات (قمران)[1]، ثم عدنا وقلنا إنها لا تحتوي علىٰ قنبلة لاهوتية، وكنا

(١) مخطوطات قمران أو مخطوطات البحر الميت تضم ما يزيد علىٰ ٨٥٠ قطعة مخطوطة، أغلبها مكتوب بالعبرية، وجدت في كهوف وادي قمران، وتعود لما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الأول منه. وهي تتبع طائفة يهودية، يغلب عليها أنها طائفة (الأسينيون) التي عزلت نفسها عن بقية المدن اليهودية.

نقصد تحديدًا عدم وجود دليل واضح بها علىٰ الثالوث الإلهي. فلماذا لا يهتم مسلم بمسح الأرض في سبيل اقتناء مخطوطة من القرن الهجري الأول تصرِّح بالتوحيد، بينما أنا كمسيحية علىٰ استعداد لأن تُمسَح بي الأرض في سبيل اقتناء مخطوطة من القرن الميلادي الأول تصرِّح بالتثليث؟

الإجابة الوحيدة المقنعة، والذليلة، هي أننا لا نمتلك الدليل النصي القديم والقطعي عن الثالوث والأقانيم الذي يغنينا عن الأدلة النصية الأحدث والأقل قطعية، لا شيء مثل مخطوطات بيتر التي كانت حقًّا جليلة وجسورة وكافية، ولا وجود لها.

تفالة القمص

ثاني هجومٍ عقائدي حدث ضدي كان في الطفولة في (شمّ النسيم)، كنت أرتدي عِقدًا ذهبيًّا به صورة للسيدة مريم وفي حضنها المسيح رضيعًا، وسألَتني طفلة مسلمة اقتربت وتفحَّصت الصورة، فأجبتها: هذه سيدتنا مريم، ومن هذا (النونو)؟، هذا ربنا وهو صغير، فضحكت الطفلة متعجبة من أن أقول إن الرب كان صغيرًا في حضن أُمّه، وتركتني واستدارت وهي تعتقد أنني بلهاء. وردُّ فعلي كان بسيطًا جدًّا وطفوليًّا، لا ينمُّ عن إنسانة عنيدة قوية الإيمان، وقفت وحدي قليلًا محتارة، ثم أخفيت العقد تحت قميصي مفضلةً الاستمتاع بيومي، وذهبت أكلمها وأتودد إليها، وأنا لا أطمع في شيء أكثر من أن تنسىٰ الأمر. وانشغلنا أنا وهي بالركض خلف كُرتها البلاستيكية الخفيفة فوق الحشائش المبللة، وكانت بالفعل قد نسيت الأمر تمامًا.

وبرغم انشغالي بمطاردة الكرة تحت الشمس اللطيفة، إلَّا أن خيال عمي الذي مات منذ عامين أخذ يبزغ ويختفي أمامي، وشهادته التي كانت أول هجوم في طفولتي، تكاد تعلو علىٰ أنفاسي اللاهثة، وأخذت أفكِّر بطريقةٍ غير مرتَّبة في طفولة الإله التي تبدو لطفلةٍ مسلمة بريئة ولثغاء اللسان فكرةً مخبولة، بينما لا أحد حولي من المسيحيين كبارًا وصغارًا يفكِّر في الأمر بالطريقة نفسها؛ فقد كانت تلك أول مرَّة يتوقَّف فيها أحد أمامي متعجبًا من الإله الرضيع، وكنت أقول لنفسي: أهيَ الطفلة الصغيرة مثلي تفهم أكثر من أبي وأمي وجدتي؟!

غيرت العقد بعد شم النسيم بأيامٍ قليلة، لبست عقدًا به صورة للمسيح الناضج الكبير؛ كي يكون الوضع أفضل قليلًا، ولا يعاتبني أحد في أثناء اللعب، هكذا كان فهمي كطفلة. ومن حسن الحظ، أنني لم أصادف طفلةً مسلمة أخرىٰ في الحدائق المفتوحة في السنوات التالية، تتعجَّب من صورة الرب المتجسِّد في هيئة إنسانية. قدَّمت تنازلًا يناسب ما عبَّرت عنه الطفلة لا أكثر من أجل القبول، وتجاهلت ما لم يعبِّر عنه أحد في مواجهتي، وضقت بشرودي القهري في بشريَّة الإله المحيِّرة، الإله الذي كان رضيعًا يومًا ما، وشعرت أنني في مواجهة أشياء أكبر مني عليَّ أن أحكم فيها وأنا طفلة تتهجَّىٰ بعض الكلمات بصعوبة، وهكذا أرهقت مبكرًا.

من بعد ذلك تكيَّفت مع الشكوك التي بدأت تناوشني حتىٰ صرت شابة، بدا لي كما لو أنني أستطيع التعايش مع تلك الشكوك بغير حسم لفترة طويلة، لكن كان هناك دائمًا ما هو أهم وأكثر إلحاحًا، وهو تطبيع المسلمين لعلاقتهم بالمسيحيين والكنيسة كما نحن وكما هي، كان هذا أهم مائة مرة عندي من تطبيع علاقتهم بعقيدتنا، ليكن المسيح نبيًّا وليس إلهًا، اختاروه لكم كما تريدون، لا مشكلة، المهم أن تتقبلونا وتتقبلوا بيوت عبادتنا بنفسٍ طيبة.

وفي سبيل أن أرىٰ هذا القبول عن طيب خاطر، ارتضيت وسعدت من بعيد إلىٰ بعيد بأسوأ مظاهره، وأغباها، وأجهلها، ارتضيت وسعدت من بعيد إلىٰ بعيد، وخلافًا لأفكاري، بجسر الود الممدود بين المسلمين من جهة، والكنيسة والمسيحيين من جهة أخرىٰ، لمن لجأوا للكنيسة والقساوسة من أجل فك السحر وطرد الأرواح النجسة وما شابه. وتحسرت علىٰ خيبة الثقافة القوية التي لم تفلح في مد جسور بنفس رصانة ومتانة الجسور التي مدَّها الجهل.

كنت دائمًا علىٰ مسافة بعيدة من هذه الأمور، فقط أنظر وأسمع وأنا أدعي عدم الاهتمام، محتفظة بالسرور في أعماقي لوجود هذا السرداب للشفقة والمواساة والأمل، الذي يصل بعض المسلمين بنا، هكذا كنت أشعر من مسافة، ولكن حرمت علىٰ نفسي الاقتراب؛ لأني أعرف ما ينتظرني داخل هذا السرداب

المعتم إن نزلت فيه من شعور بالخوف والقلق والاشمئزاز، أعرف أنني إن دخلت إلىٰ هذا العالم الذي يرتبط عندي بالفقراء والجهلة، لن أراه وقتها أكثر من عالم مشبوه.

إلَّا أنني سهوت، وما أكثر ما آذاني السهو، سهوت تحت تأثير العاطفة، عاطفة امرأة لحوح تعرف كيف تنفذ بصوتها إلىٰ القلب، تورطت في الذهاب إلىٰ الكنيسة مع مدام فريال من أجل شفاء ابنتها الشابة من (عمل) تقول إن إحدىٰ جاراتها قد عملته للبنت حتىٰ لا تتزوج، ففي آخر وأفضل فرصة خطوبة، فُسِخت خطوبتها لمهندس بترول ثري ووسيم ومهذب قدَّم لها شبكة قيِّمة، وكان متعلقًا بها جدًّا، وكريمًا في هداياه ووعوده المستقبلية.

تأثرت بتلك التفاصيل التي حكتها لي، ومن إلحاحها علىٰ العلاج الكنسي رغم أنها مسلمة. كنت مترددة، وخائفة، خائفة من هذه الخفة التي تدفعها إليها المصلحة، خائفة من أن يكون من خلفها، ورغم كل شيء، غياب الثقة والحس الغبي للمؤامرة، فتأتي يومًا وترمي إليَّ بقنبلة وتصرخ في وجهي: (نهار أسود! البنت عليها عفريت نصراني من ساعة ما رحنا معاكي الكنيسة)، لكنها ألحَّت عليَّ بما لديها من ذكاء عاطفي، ونبرة صوت تجيد وقت اللزوم التعبير بها عن الحزن وقلة الحيلة، حتىٰ ضعفت واخترت أن أرافقهما. لم يكن حب الفضول والمشاهدة قد غلبني، علىٰ الإطلاق، لم يغلبني إلَّا الحياء منها.

ومررت عليها في عملها في الشركة الـ . . . . في وسط البلد، وأكلت معهما، في تجربة مريعة، ساندويتشات كبدة في الشارع بعد إلحاحها الشديد، فقد ظنت أنني اشتهيت ولكن أرفض بسبب الحياء، تجربة كانت صعبة جدًا من جميع نواحيها، بما فيها تمسُّح وإلحاح القطط الضالة التي كانت عند أرجلنا، والتي كنت أقفز كلما لمست بشواربها ساقي، أما هما فكان الأمر طبيعيًا جدًّا بالنسبة إليهما، وكنت أشعر وقتها بأن الذل والارتباك الذي أشعر بهما في أثناء أكلي معهما هما العقوبة المقررة علىٰ كل إنسان لطيف اعتراه الضعف أمام طلبات الآخرين التي لا تناسبه، وأن آلام استسلامي لامرأة لحوح لم تنته، وستكتمل في الكنيسة.

وتوجهنا للكنيسة وهي مستبشرة ومقدامة، تتمنىٰ فكَّ السحر الذي عملته الجارة لابنتها، وتنظر للسماء كل قليل ونحن في الطريق، بوجه متعطش للشفاء، وتدعو الله، وتلح عليه، وحياة حبيبك محمد، وكنت أود أن أضحك علىٰ هذا الفصام الشنيع.

ونزلنا في السرداب الذي لم أكن أرغب في نزوله أبدًا، واستغربت من أن نسبة ليست قليلة من المتواجدين في هذا الزحام غير الطبيعي هم من المسلمين، وبدأت المناظر التي تحيط بي تأخذني، كان ما حولي كابوسًا يضج بالمشاهد المرعبة، والحركات الفجائية، والصور المثيرة للغثيان، ومع ذلك فليس هناك الكثيرون ممن يتلفتون متعجبين مما يحدث حولهم؛ بل أغلب

الحاضرين قد استلموا آذان من بجانبهم دون مقدمات، وربما حتىٰ دون أن ينظروا في وجوههم، يحكون عن مآسيهم الغريبة، والمقادير التي أوقعتهم في حبائل المسِّ، ورأيت أمواجًا من الآنسات يصرخن ويقعن علىٰ الأرض بشكل متتالٍ، كأن شيطانًا موسيقيًا يعزف بأجسادهم التي انصاعت له، ويا ليتني ظللت أنظر إلىٰ المشاهد الفاجعة هنا وهناك ولم أرَ هذا النحيل المعدوم، الذي يجلس بالقرب مني ويسيل اللعاب من فمه، وهو ينظر إليَّ ولا يرفع عينيه عني كأن علاجه عندي، وهو لا يدري سطوته المقززة التي يفرضها عليَّ بهيئته واقترابه ونظرته التي ثبتها علىٰ روحي التعسة حتىٰ سدَّ عليَّ نوافذ الكون والرحمة.

وازداد الأمر إثارة بسير (القمص) بين الناس وهو يحمل إبريق الميَّة المصلية [ماء مقروء عليه]، فتوقف الناس عن الثرثرة، وانتهت موسيقىٰ البنات ذوات السقوط المنغَّم، ليخطف الأنظار هذا الهلع الجحيمي علىٰ عيون من يرش القمص علىٰ وجوههم الماء، وعلىٰ من يتفل بوجوههم كي تخرج الشياطين، وقد انشغل به الرجل المعدوم وقام إليه يبحث معه عن علاج، فتنفست الصعداء.

وبرغم الصدمة، والاشمئزاز، والرغبة في أن لا يطول وقت تواجدنا هنا، إلَّا أنه تسلل إليَّ شعور بشيء من الفخر بما يجري، وتحت تأثير هذا الشعور الغريب المؤقت، ودون مقدمات، وبرغم غياب السنين، قفزت الطفلة المسلمة التي استخفت بصورة الإله

الرضيع، قفزت كضفدع من طين الذاكرة، بقوة دفع الهزائم الطفولية الأولىٰ، لقد تخيلتها تقتحم هذا المسرح الهزلي المزدحم بالعاهات، تقتحمه بترهلٍ وإحباط، تطلب العلاج، وتخيِّم علىٰ وجهها التعاسة مع الرجاء المفرط البليد، تحت تفالة القمص.

وأفقت من خيالاتي الانتقامية، علىٰ روائح الموجودين المختلطة، والهمهمات والصرخات، والأنانية البائسة لمن لا يطلبون إلَّا لأنفسهم: أنا يا ابونا، أنا يا ابونا، أنا يا ابونا، والرجال الذين لم تمنعهم مآسيهم، وقروح أنفسهم التي لا تندمل، وفيروس سي، من الانشغال في هذا الزحام باشتهاء أرداف النساء، وأخذت أتلفَّت حولي كغريبة عن المكان، أما مدام فريال وابنتها، اللتان لا تنتفضان إن تمسحت بهما القطط عند عربة الكبدة، فكانتا متعايشتين مع المكان والزحام وما يدور حولهما أكثر مني، وكنت وحدي من أصابها الهمُّ من الرجل المرهق ذي العينين الغائرتين، الذي يناور وهو يتصنَّع النظر إلىٰ القمص، في سبيل الوقوف خلف مدام مريال.

كان من العجيب أن كثيرين ممن رش القمص عل وجوههم الماء يفيقون بسرعة ويبتسمون، معلنين عن شفائهم السهل البسيط، والأعجب أن بعض المسلمات كنَّ يحاولن الارتماء في حضنه من باب الامتنان، وهو يتراجع للوراء، بعد أن يخبر الحالة أن المسيح شفاها.

من المؤكد أن الأمر في هذا السرداب المشحون بالعصبيين والجرحىٰ، لا يخلو من الإيحاء، واستغلال أوجاع الناس وأمراضهم النفسية، ورغبتهم في لعب دور الضحية بدلًا من مواجهة مشاكلهم بجدية ونضج. لم أستطع منع نفسي من الشعور بالاستغراب وأنا أرىٰ الشياطين تخرج في ثوانٍ من الممسوسين، تلك السرعة القصوىٰ زادتني نفورًا، القمص ينهر الشيطان داخل الرجل ويقول له صوتك لا يعلو هنا، أنت تحت الجزمة، فيهرب الشيطان، شيء في منتهىٰ السهولة، الأمر مع القمص في هذا العرض أفضل كثيرًا مما حدث مع ربه المسيح الذي أخذ إبليس يلاحقه ويضايقه ويقطع عليه طريقه ويحاول إغواءه لمدة أربعين يومًا كما جاء في الأناجيل، بل وفي إنجيل لوقا أن الشيطان تركه إلىٰ حين (راجع لك).

لو علمتْ مدام فريال بقسٍّ متخصص في طرد الشياطين أخذ الشيطان يغريه لمدة أربعين يومًا ما ذهبت إليه للعلاج، وهي لا تدري كثيرًا عن المسيح ولا يهمها أن تدري، لا تدري أن ما أقوله حدث مع رب كل القساوسة. إذن ميزت الشياطين القمص المحلي وعرفت قدره، بينما إبليس كبير الشياطين لم يعرف قدر خالقه المسيح، ووقف في طريقه يزعجه لمدة أربعين يومًا، رغم أنه يقال إن الشيطان لا يتحمل رؤية الصليب، فإن رآه يصاب بالهلع، فكيف تحمل الحضور الإلهي من خلال مضايقة سمجة استفزازية

طويلة؟! لا بل وكان يغوي إلهه بأن يمنحه ممالك العالم مقابل أن يسجد له، ولا نعرف السبب الذي منع خالقه من وقف هذه المهاترة في ثوانٍ بأن يقول له: أنا الإله ولا يصح أن تجربني ولا يصح أن تحرضني علىٰ السجود لك، هذا لا يليق. وعلينا أن نظل محتفظين بهذه الفكرة الغريبة عن مطاردة إبليس للإله ومحاولته أن يغويه، دونما أن نشعر بالانحطاط الذهني، ولا نسمح لأنفسنا أبداً بالظن بأنه كان يطارد نبيًا في بدايات دعوته، مهما بدا هذا أكثر منطقية.

وأخيرًا جاء إلينا بعد أن ضقت تمامًا بالزحام وقلة الهواء وجزع المرضىٰ، وضقت حتىٰ بفرح الذين ادعوا الشفاء. وقد حاولتْ بنت فريال أن تتجاوب مع القمص بطريقة تتفق مع خبرتها التي اكتسبتها مما يدور حولها، بأن تحرك عينيها بطريقة عصبية وتلوي فمها شِمالًا، لكنها لم تكن مقنعة بشكل كافٍ، لا لي ولا للقمص، وقد أوصاها بأن تتخلَّص من أي أحجبة لديها فهي التي تتعبها وتعيق فكَّ السحر لها.

وعدت للبيت مساءً أراجع صور المشهد الغريب، ثم أخذت أفكِّر فيما قد تحمله الأيام القادمة، ربما تتزوج بنت فريال قريبًا، نعم، يا ليت، وربما لا، إلَّا أني تمنيت أن تتزوج قريبًا بأي طريقة، حملتُ همَّ هذا الأمر جدًّا، ليس لكي تؤمن بأن الرب يسوعَ قد شفاها؛ لكن لتؤمن بأن رجل دين مسيحيًا شفاها، فتشعر بالود والتقدير تجاه رجل الدين المسيحي إن رأته في الشارع أو السوبر

ماركت أو طابور البنك، لتؤمن بأنها شفيت داخل كنيسة، فلا تشعر بالضيق عندما تمر تحت جدار كنيسة أو تقع عيناها علىٰ الصليب أعلىٰ برجها، هذا أقصىٰ ما أريده من عامة المسلمين. واستمررت علىٰ هذا الحال من التفكير في زواج كوثر بنت مدام فريال قبل النوم بشكل يومي كحرصي علىٰ استخدام فرشاة الأسنان، ولأن هذا التمني المنتظم لشفاء كوثر بنت مدام فريال مثَّل ضغطًا عاطفيًا شديدًا عليَّ، كأني (مغسل وضامن جنة)؛ فقد قررت بناء علىٰ هذه التجربة ألَّا أذهب مرة أخرىٰ مع أي مسلمة مهما كانت لتعالج داخل الكنيسة، لتكون هذه المرَّة هي الأولىٰ والأخيرة؛ لأنه لن يمكنني أن أعيش حالة قلق في كل يوم يمر دون أن تحل المشكلة. وحالة التمني التي ألحُّ فيها علىٰ الرب كي يتحقق الحلم لأننا، كمسيحيين، بحاجة إلىٰ ذلك، شيء مرهق جدًّا ويولِّد شعورًا بالكبت، ذكرني بالضغوط التي كان يشعر بها المسيح إزاء الطلبات المستمرة للمعجزات والعلاج. لكل هذا وضعت عني وجه جدتي الودود المتعاون الذي يحب تقديم النصيحة، ووضعت لنفسي وجه أمي البارد المتحفِّظ، وقلت لمدام فريال إنني لن أستطيع الذهاب معها للعلاج مرةً ثانية، هكذا دون أن أبدي أسبابًا، وشعرت بالتخلص من عبءٍ شديد عندما توقفت عن الصلاة من أجل ابنتها، تلك الصلاة التي كنت أعبر فيها للرب عن وقوعي تحت ابتزاز الأغلبية.

من بعد ذلك، عرفت من إحدىٰ البنات أن كوثر علىٰ علاقة منذ فترة طويلة بشاب وسيم مستهتر في مثل عمرها، يعمل في مكتب تصوير مستندات بالقرب من الجامعة المفتوحة حيث تدرس، وهي متعلقة به تعلقًا شديدًا، وهناك احتمال كبير أنه يقوم بنفسه بـ (تطفيش العرسان) عن طريق الاتصال بهم؛ لطمعه في شقتها التي تدفع أمها أغلب أقساطها، والأغرب أنني عندما ارتديت وجه جدتي الودود المتعاون مرة أخرىٰ وواجهت أمها بكل اللطف والكياسة بهذه الحقائق حتىٰ تستطيع تدارك الأمر، وجدتها تخفض رأسها، ثم ترفعه وتنظر لي نظرة من يعاني، وأكدت أنها تعرف تفاصيل التفاصيل، ومع ذلك فهي مصرَّة علىٰ مسألة السحر الذي عملته الجارة، وأن حب فتاتها لمصور المستندات الوسيم هو أحد أعراض ذلك السحر الرهيب، وعندها ازداد إحساسي بتفاهة الأمر الذي أوحلت نفسي فيه، وتفاهة الاثنتين، وازددت إيمانًا بأني كنت علىٰ صواب تمامًا عندما أخبرتها ببرود أني خرجت من أمر استشفاء ابنتها من السحر عند الكنيسة، وهكذا استخلصت رأسي، من بين نعامتين مسلمتين دفنتا رأسيهما في الرمال.

المتنصر

(م.س) الذي عرفني عليه أصحابي باعتباره شابًا مسلمًا بينه وبين اعتناق المسيحية شعرة، تذكرته الليلة بهيئته الفريدة التي توحي بالشاعرية والاستقلال وبعض الاضطراب، وإلقائه الجميل للشعر؛ ظهر كلغز هذا الإنسان واختفىٰ كلغز.

اتصلتُ بـ(جانيت) وسألتها في وسط الكلام عنه وعن آخر أخباره، كأنه سؤال عابر، والحقيقة أنه سؤال ملحٌّ، فقد كنت أرغب في أن أراه مرة أخرىٰ وأسحبه للخلف بهدوء لأيام البداية مع المسيحية؛ لكي أقف علىٰ الكيفية التي يرىٰ بها الداخلون من باب المسيحية الأمر، لآخذ اللقطة من الخارج بما فيها من رهبة وطلاسم وترحيب؛ كي أحدد من خلالها تلك اللمسات التي تعطي المسيحية جاذبيتها، أو ذلك الشيء الذي يجعل فكرة تجسد الإله في شكل آدمي مقنعة ومريحة تمامًا للبعض؛ كل هذا كنت أتمناه من اللقاء به مرة أخرىٰ، رغم الانطباع الذي أخذته عنه بأنه شخص

ليس من السهل استجوابه، فهو يميل للانطلاق في الكلام والبوح دون أسئلة تحدد المسار، كان نصف شاعر، صاحب نزعة نصف يسارية، لا يسمح بأن يستبد به أحد بطرح الكثير من الأسئلة.

جاءني رد (جانيت) بلهجة فيها ضيق مبطَّن أعرفه فيها عندما تخفض نبرتها، تسألني متعجبة من تذكري له، بلهجة بها استهانة مصطنعة بهذا الشخص الذي كانت تمارس عليه الأمومة بشكل مبالغ فيه، لدرجة أنها أخذت تثبت له مرة زر قميصه بالإبرة والخيط علىٰ مرأىٰ من الآخرين، بخلاف تدليلها له وهي مسيحية متزمتة بلقب (حمادة)، ولعلها أول مسيحية علىٰ هذا المستوىٰ من التدين تتمتع بمناداة شاب مقرب إليها باسم (الدلع) هذا الذي لا يطلق إلَّا علىٰ المسلمين ممن يتسمون مثله باسم (محمد).

لقد كان واضحًا لنا كبنات أنها تفكِّر فيه، وأنه أفقدها اتزانها، وهز وقارها كإنسانة كرَّست نفسها لخدمة المسيح. كانت مكشوفة، ولكن لطيبتها وضعف خبرتها في هذه المسائل كانت تظن أن مشاعرها مستورة، وأن الأمر غير ملحوظ.

أخبرتني أن (م.س) قطع الاتصالات بمعارفه القدامىٰ كلهم، بدون مقدمات، وفي ليلة واحدة، كأنه كان ينوي ذلك، بالطريقة التي تحدث من شخص مديون خطط للفرار من كل الدائنين. وهي كانت مثل غيرها، لم يستثنها في التهرب والتجاهل. أخبار مؤسفة؛ وماذا بعد يا جانيت، قالت إن الأمر استمر أربعة أشهر بغير أي

معلومة، مرت عليها وهي في قمة القلق بخصوصه. ثم وصلت أخباره الجديدة من بعيد: هو علىٰ ما يرام، اعتنق المسيحية وهرب من مصر، واستقر في الخليج في مدينة (...)، ليس وحده؛ بل معه الآن زوجة إنجليزية لا نعرف متىٰ أو كيف ظهرت بحياته، ولا متىٰ اعتنق مذهبها البروتستانتي. بعد هذا الجهد الذي بذلناه معه يا ماري، والحنان الذي أحطناه به؛ جلس يقرقر عندنا سنة كاملة، ثم باض في عشة الآخرين!

أيقظت الليلةَ مواجع جانيت التي عرفتني عليه، وكان هذا في الفترة الأخيرة من ظهوره، وقد تعرض بعدها لبعض المضايقات والاضطهادات التي انتهت بانقطاع أخباره عني أنا علىٰ الأقل. وصلتني أخبار وقتها أن رائحته فاحت علىٰ مستوىٰ عائلته وأصدقائه المقربين، كشخص قد تبلبل عقائديًا ووقع تحت تأثير أصدقائه من المسيحيين. لاحظ من حوله أنه لم يعد يبدي اهتمامًا بالشعائر الإسلامية، ويرد علىٰ السلام الإسلامي بصيغ أخرىٰ غير الصيغة المتعارف عليها لرد السلام، ويشرب بشماله علىٰ خلاف التقاليد الإسلامية، ويلقب أي ملتحٍ بـ(أبو مقشّة)، وصار يهزأ من المنتقبات عندما يراهن في الشارع ويسميهن (العفاريت)، ويسمم بدنهنَّ بكلامه وهو يمر من جانبهن؛ مظاهر عديدة أكدت تدهور قدرته علىٰ الكتمان، فصار وضعه مكشوفًا، حتىٰ إن أحد أقاربه الإسلاميين ذهب إلىٰ بيتهم ووبَّخ أهله علىٰ سلبيتهم مع ابنهم

الهوائي (الدلوع) وهم يرون فيه علامات الانسلاخ من الدين، وسمعت أنه هدد بقتله إن استمر في طريقه. أما أمه فكانت تبكي وتلقي بالمسئولية علىٰ جارتهم المسيحية التي تكره ابنها، وتظن أن هذا من عمل سحر عملته له في الكنيسة بشبرا تأديبًا له علىٰ إيذائه لسمعة ابنتها منذ سنوات.

هذه الأخبار المؤكدة أصابتني بقلق شديد وتوتر بالرغم من أن هناك الكثير من المسيحيين الأقرب له مني، الذين يمكن أن يعملوا بشكل صريح علىٰ تنصير شخص مسلم. فاستعددت للتهرب منه كشخص تحت المراقبة، حتىٰ لا يأتي اليوم وأجد نفسي في القفص في قضية (شبكة تنصير). ولم أتوقع وقتها أن هذا الشخص الذي قررت أن لا أرد عليه إن اتصل بي وأنكره إنكار بطرس لسيده، وأقسمُ علىٰ ذلك، وأسب وألعن وأقفل الخط، لن يتصل بي ولا بغيري.

أنا من بادرت للتعرف إليه وليس هو، انتهزت وقتها تلك الفرصة الذهبية التي لا تتكرر كثيرًا التي يرىٰ فيها الإنسان مسلمًا علىٰ مشارف المسيحية، انتهزتها حتىٰ أمسك بيدي ذلك الشيء المدهش الذي يجعل شخصًا لم يولد كمسيحي بل وُلِد كمسلم، قابلًا لأن يتسرب في أعماقه الإيمان بأن المسيح إله وليس نبيًا. ورغم هذه المبادرة من جانبي واللهفة التي بدت عليَّ في استقباله، إلَّا أنه لم يترجم تصرفي العفوي بشكل خاطئ؛ فقد كان من ضمن

الأشياء التي تدفع لاحترامه هو أنه ليس مصابًا بذلك الاعتقاد الراسخ عند قطاع كبير من الشباب بأنه ينبغي في بداية التعرف إلىٰ شابة أن يتم اختبار إمكانية إقامة علاقة عاطفية. لم يكن فقط يقدِّر علاقة الإخوَّة، بل كان يتمتع بها.

تباسطت معه يومها في حديث أخوي منوَّع أنهاه بإلقاء بعض أشعار محمود درويش وشاعر آخر من أصل كردي لا أتذكره وقصيدة أمل دنقل التي يقول فيها (المجد للشيطان معبود الرياح)، وكان إلقاؤه جميلًا بالفعل، وخصوصًا أنه صاحب نبرة تفيض شاعرية وحزنًا، ويجيد استخدام لغة الجسد. ثم مهَّدت لنفسي بالكلام عن تمرد الشعراء وشكهم ونزوعهم أحيانًا إلىٰ التجديف، حتىٰ ألطِّف الجو قبيل السؤال الصعب، ومن بعدها دخلت في الموضوع وأنا محافظة علىٰ ابتسامتي، وسألته عن يقينه في ألوهية المسيح بلهجة أبدو فيها كأنني غير متأكدة. تقمصت في طرح هذا السؤال شخصية شاعرة حداثية متمردة وصاخبة، سألته هل يظن أن تلك الألوهية مجاز كمجاز الشعراء؟ فنظر لي نظرة فيها شيء من الإباء، فعرفت أنه ظن أنه يخضع لاختبار لقوة إيمانه. وكشاب في مثل هذه التركيبة رأىٰ أن هذا لا يحق لي علىٰ الإطلاق، وقال لي بثقة: (أنا معجب جدًا بالمسيح، هذه هي نقطة البداية، وهي كافية جدًّا لأن أقبَله وأقبَل يده الممدودة لي). هززت رأسي محرجة، يبدو أنني لم أكن مقنعة في تمثيل دور فتاة غير متأكدة، ربما يرجع ذلك لكوني غير متأكدة بالفعل.

وتركته يسترسل في الكلام عنه، وكنت أزداد تأكدًا من خلال استرساله أنه يحبه حبًا كذلك الحب الذي يكنه لـ (جيفارا)، فوضَّحت له أنني أدرك تلك الجاذبية التي يشعر بها الكثيرون تجاه المسيح بما فيهم بعض الملاحدة واللادينيين، ولكنني أستفسر منه عن الاعتقاد في ألوهيته، فزفر وتكلم كلامًا مختصرًا ومرتبًا كأنه يعطيني ما أريد الاستماع إليه أو ما هو متوقع أن يقوله، كالإجابات النمطية لطالبي الهجرة، تكلم وهو يبتسم ابتسامة المستفَز عن ميلاد المسيح المعجز وإحيائه للموتىٰ وقيامته من الأموات. وبعد أن سكت قليلًا، أبدىٰ تذمره لكونه اضطر لأن يجيب بهذا الشكل المباشر الذي لا يروق له، وصارحني وهو يركل الطوب بحذائه الغليظ المحلول الرباط، بأن سؤالي سطحي، وأن المعجزات بالنسبة إليه ليست أكثر إبهارًا من ألعاب نارية في عين الأطفال، إنها ليست له، إنه لا يحب العروض البصرية لأنها للمتبلدين؛ إنما تبهره طاقة الحب العظيمة في قلب المسيح للبشر، وقدرته الإعجازية علىٰ التضحية، وصارحني بأنه عليَّ أن لا أسأله هذه النوعية من الأسئلة التي لا تناسبه. وبعد أن سكت قليلًا، قال لي بنبرة مجروحة شاكية إنه عليَّ أيضًا أن لا أصدق ما سمعته من أنه وصل للمسيح منقادًا خلف دكتور الأسنان (ش)، وقال إنه لا يتبع أحدًا، وإنه جاء للمسيح بمحض إرادته، وأن الدكتور وفَّر فقط عليه بعض الوقت وجنَّبه بعض العثرات، قال كل هذا كأنني أطلت الحديث معه عن الدكتور، رغم أن كل ما نطقت به في أول اللقاء

هو سؤاله عن أخبار الدكتور لا أكثر. يبدو أنه كشخص معتز بنفسه، يرفض أن يشعر بأنه كان (صيدًا) لأحد، للدرجة التي شممت معها في كلامه برائحة كراهية للدكتور، وهو نفس إحساس جانيت الذي نقلته إليَّ؛ هي توقعت أنه شعر بالاستياء والصدمة والإهانة بعدما اتضح له متأخرًا أن احتواء الطبيب له ليس احتواء صديق قد انبهر بفكره وأشعاره، بل هو احتواء تبشيري. انتهىٰ احتضان الطبيب له بأن عرفه علىٰ مسيحيين مقاربين له في السن والاهتمامات ممن يفضلون الجلوس مثله علىٰ مقاهي وسط البلد، واندمج فيهم بسرعة بسبب توافق الميول والشخصيات، لينسحب الدكتور برفق، في عملية تشبه إطلاق كائن في بيئته الطبيعية من قبل ناشط في حماية الحياة البرية. كان لديه جرح انتبهت له جانيت، جرح يوقظه سؤال عابر عن طبيب الأسنان؛ ولن أكون قد ذهبت بعيدًا إن ظننت أن اختياره مذهبًا آخر هو أفضل وسيلة عملية وجدها لينفي أمام الناس وأمام نفسه تهمة انقياده لطبيب الأسنان، وليحطِّم سلسلة العلاقات التي تكوَّنت بمعرفته به.

احمرَّ وجهي من الضيق، لكونه تعامل معي كشخصية فقيرة محدودة تنفِّذ عليه اختبارًا ساذجًا. ولكني شعرت بأنه يجب عليَّ أن أتحمله، وقلت له إن ما يقوله عن المسيح شيء في منتهىٰ الجمال والرقة، ولكنه مذكور في القرآن، ولم يجعل المسلمين يؤمنون بألوهيته، وإنني فعلًا أود أن أقف علىٰ الكلمات التي قالها المسيح

وجذبته لهذا الطريق الصعب الذي سيجعله مطاردًا للأبد من مجتمعه، ولن يمكنه أن يحضر زواج أخته الكبرىٰ التي يحبها كثيرًا، والتي جاءها ابن الحلال بعد أن وصلت للثانية والثلاثين، أو عزاء أبيه المريض بعد عمر طويل من بعد إعلانه ديانته الجديدة، ماذا قال المسيح ويبدو وكأنه قاله في أذنيك فصدَّقت ألوهيته، للدرجة التي سترمي بها كل شيء خلفك؟ وقلت له إنني لا أسأله باعتباري مسيحية قديمة تسأل شابًا مستجدًا في المسيحية، أنا لا أستعرض عليك باسم الأقدمية، وأنا أيضًا لا أختبرك، وكذلك لا أنظر للأمر باعتبارك كنت شريكًا في مباراة غير متكافئة مع الدكتور انتهت باستسلامك السريع؛ فصدقني وهز رأسه، واعتذر عن أسلوبه، وقال إن الأمر بسيط جدًا، وبغير تكلف، إنه كحالة الحب، لقد غمره شعور عارم بحب المسيح والإيمان به، ويومًا وراء يوم شعر أنه دخل في عالم آخر مختلف وحالة أخرىٰ مدهشة من الصعب مناقشتها بالمنطق، فابتسمت معبرة عن اكتفائي بالإجابة، حتىٰ أبدد الجفاء العابر، وإن كنت في أعماقي أشعر بالألم وخيبة الأمل، فحتىٰ ذلك المثقف المسلم دخل في الأمر من بوابة العم (نصحي البواب). (م.س) لم يذكر قولًا واحدًا للمسيح باعتباره تصريحًا بالألوهية، رغم أن كمَّ الشعر الذي ألقاه يؤكد فيه أمرين هامين: قوة الذاكرة وحسن الالتقاط للتعبير المبدع الاستثنائي؛ فما الذي جعله يدخل في الأمر علىٰ خلاف ميوله من بوابة العم (نصحي البواب) حيث تبدو ألوهية المسيح بغير

حاجة إلىٰ كلام، وحيث تبدو كل المسائل راسخة وظاهرة كالجبال لا تحتاج إلىٰ التعبير عنها حتىٰ يتأكد وجودها؟ ألم يجد في أقوال المسيح شيئًا فذًا في التعبير عن ألوهيته يناسب ذوقه ليلقيه أمامي بالنبرة الجميلة ولغة الجسد المتمكنة؟

لقد استراح من بعد ذلك وأخذ يتكلم علىٰ السجية، وعبر لي عن نفسه وأحاسيسه الخاصة تجاه المسيحية، وكيف أن هناك أشياء مهَّدت له الطريق الذي يسير فيه، مثل شعوره المستقر بأنه من أصل فرعوني، وأنه لا يميل علىٰ الإطلاق للعروبة، واستند في دعم ذلك الشعور المستقر إلىٰ كون القرية التي ينتمي لها والده لها أصل مصري قديم، وتكلم عن أشياء أخرىٰ مهَّدت، من ضمنها عقدة ذنب نتيجة لركله زميله المسيحي في بطنه في أيام الثانوية ركلةً شديدة عندما قال له في مناقشة متعصبة بينهما إنه يرىٰ أن القرآن مجرد كلام فارغ، وأخذ يتلوىٰ من الألم. وعندما عاد (أكرم) المريض بالقلب من الإجازة المرضية، حاول إقناعه أنه لم يضربه لكونه مسيحيًا، بل ضربه لإهانته مقدساته، ولكن زميله أصر علىٰ الخصام، وظل مقتنعًا بأنه تعرض للضرب لكونه مسيحيًا. وعقدة ذنب أخرىٰ منذ بداية المراهقة عندما بدأ يعاكس ابنة الجيران المسيحية بنت الثالثة عشرة من الشرفة للشرفة، حتىٰ ضبطتهما أمها ذات الأصول الصعيدية، وحدثت خصومة بين الأسرتين، وحاول أن يتأسف للمرأة عندما وجدها في السوق من بعد ذلك بعدما

وصل للثانوية، ويشرح لها أنه لم يقصد أن يسيء لهم باعتبارهم أسرة مسيحية، وأن هذا الأمر يحدث في هذا السن بين المسلمين وبعضهم بعضًا، وكذلك بين المسيحيين، إلَّا أنها لم تثق به، وظلت تعتقد أنه كان ينوي لابنتها الأذىٰ لأنهم مسيحيون. أشياء كهذه وغيرها، كلها جعلته يشعر بأن اقترابه من المسيحيين المصريين فيه عودة للجذور وفيه راحة بال، هناك شيء ما عميق يجعل كل خطوة في الاتجاه للأقباط كخطوة لعودة ابن ضال لأهله، شيء يغلق العيون المحتجة للجارة الأم وللزميل الذي مسك بطنه من شدة الألم.

شدتني هذه الشظايا الشاعرية التي حكاها قليلًا، غير أني تذكرت حاجتي الملحَّة لحديث راسخ ومنطقي، من شاب سيعبد رجلًا كان يؤمن بنبوته، فابتسمت بعد أن أبديت أسفي لكونه كان يسيء من دون أن يتعمَّد الإساءة، وكان يرغب دائمًا في أن يطيب خاطر الآخرين فلا يجد من يصدقه. وطلبت منه أن يتحمَّل سؤالي المفاجئ، فهز رأسه بما يشير إلىٰ أن آخذ راحتي، فقلت له إن كلامه اللطيف عن الفراعنة وكذلك عن المسيح، قد جعل حديث فرعون في القرآن يقفز علىٰ بالي فجأة، ذكرت له الكلمات التي يدعي فيها فرعون الألوهية بالمعنىٰ، فقال (أهو قال ذلك؟!)، فصدمني أنه لم يسمع هذه الأخبار من قبل، فاضطررت إلىٰ البحث أمامه في جوجل عن طريق الجوال، حتىٰ عثرت علىٰ كل ما أريد،

وكان بجانبي يقرأ الكلمات للمرة الأولىٰ، ففرعون يهدد موسىٰ: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، ويقول للناس: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وسألته وأنا باسمة، وهو متحفز ليثبت صلابته واستعداده، إن كان يشعر بالقلق بعد سماعه لهذه التصريحات الصاخبة المباشرة، بالقلق من أن فرعون يعرف ما الذي يجب علىٰ مدعي الألوهية أن يقول، بينما جميع تعبيرات المسيح لا يمكن أن تقارن من ناحية الإفصاح بما ورد علىٰ لسان فرعون بالقرآن. فرد بصيغة متهربة وعلىٰ سبيل الدعابة بعد أن بان عليه للحظات آثار المباغتة، وقال إن تصريحات فرعون نجسة ومضلِّلة، هذا هو الفرق، والمسيح جاء ليخرج بالناس إلىٰ بر النجاة، أما فرعون فتسبب في إغراق نفسه وإغراق من ساروا خلفه، وإنه يشعر بالفعل بأصله الفرعوني ويعتز به جدًّا، ولكن عندما بدأ يغمره الشعور بصدق المسيح في بشارته وروعة تضحيته كمخلِّص، صار المسيح أقرب إلىٰ قلبه من الأصل المصري الذي يعتز به، وأكمل وهو يبتسم أنه لا يستطيع حتىٰ ولو كان من نسل فرعون نفسه بأن يشهد لفرعون ولا يشهد للمسيح. حاولت أن أشرح له أنه يجيب عن سؤال لم أسأله، أنا لم أقل له أيهما أفضل: المسيح أم فرعون؟ هذا سؤال لا يحتار المسلم في إجابته حتىٰ لو كان من علماء المصريات، أنا أسأله عن الإفصاح،

وهو سؤال مشروع؛ أسأل عن السبب الذي جعل المسيح يمتنع عن إطلاق تصريحات بهذا المستوىٰ من الوضوح.

وقلت له إن هناك تصريحات بالألوهية لا تحتاج إلىٰ إعمال العقل، لا تحتاج إلىٰ معدات التأويل الثقيلة التي ينزل بها المفسرون في ساحة الكتاب المقدس، وتلك التصريحات التي لا خلاف عليها متوفرة في الكتاب المقدس، وفي القرآن، لكن لا يوجد من بينها تصريح سافر للمسيح يؤلِّه به نفسه.

لفرعون تصريحات ثلاثة بالألوهية في القرآن، لا يستطيع أي مسلم غيور علىٰ الحضارة الفرعونية، وغيور علىٰ سمعة المصريين القدامىٰ كشعب متديِّن وموحِّد، أن يقول إنها كلمات قد أسيء فهمها، وإنها قد اجتزئت من سياقها؛ هذا لأنها تصريحات فجة وواضحة، وأنا يا صديقي أستفسر فقط عن سر امتناع المسيح عن الإدلاء بتصريح فج لتلاميذه.

كان يشعر بأن كلامي غريب، وارتسمت علىٰ وجهه ابتسامة صدمة، وقلت له إن ما دار بيننا يجب أن لا يخرج إلىٰ أحد، فهز رأسه نافيًا وقال: عيب عليك، لا تقلقي. ثم ضحك وقال لي: بإمكاننا أن نكون (ثنائيًا) عجيبًا نادرًا في يوم من الأيام إذا استمر بي وبك الحال علىٰ هذا النهج، مسلم وتنصَّر، ومسيحية وأسلمت. وأهداني نسخة من أشعار مترجمة قد طبعها من الشبكة، فشكرته عليها. ويبدو أنه أراد أن يغلبني بلطف في الدقيقة الأخيرة قبل أن

يمضي وهو يبتسم، فقال لي وهو ينظر إلىٰ بعيد نظرة شاعرية كأنه رجل تجلىٰ له ما لا أرىٰ من عالم الروح: لا يكفي أن يعرف الرجل ما عليه أن يقول. قالها وكأنها نزلت عليه وحيًا، ثم انخفض وأمسك بفراشة غارقة في بركة ماء بجوار الرصيف، ورفعها مستخفًا بها، رامزًا بها إلىٰ فرعون، وعلىٰ وجهه وجل مفتعل كوجه القديسين، فقلت له: إن فرعون الذي غرق كفراشتك هذه، ليس فقط بالشخص الذي يعرف ما الذي عليه أن يقول، بل هو فوق ذلك يعرف جيدًا ما الذي عليه أن لا يقول إن كان يريد أن يعتقد الناس في ألوهيته، فلم يقل لشعبه: (إلهي وإلهكم) مثلما قال المسيح، كما أنه يعرف ما الذي عليه أن لا يفعل، فلا هو صلىٰ ولا هو تضرَّع ولا أمسك الخبز وكسر وشكر كما كان المسيح يفعل.

فاطمة والمبشِّر

في أثناء جلوسي بمفردي أفكر فيما سأشتريه من معرض الكتاب في زيارتي له بعد الغد، خطر لي فجأة أن أكون أخرىٰ هناك، وسرعان ما رأيتني علىٰ ستارة غرفتي علىٰ الشكل الذي أرغب في الذهاب به، توجهت إلىٰ معرض الكتاب بعباءة خليجية سوداء، يغلبني الانشراح والشعور بالحرية، ككل مرة من المرات التي أطلق نفسي فيها للتجوال بشخصية أخرىٰ.

كنت قد جهزت نفسي وارتديت العباءة والطرحة في كوافير (. . .) الذي خصصته لتغيير الشخصية، فالكوافير هو المكان الوحيد الذي يتم فيه تبديل الملابس بغير أي حرج، بينما يثير الأمر امتعاضًا واستغرابًا إذا ما تم التبديل في دورات المياه بالمطاعم والمولات، كما يحدث من بنات الثانوي المتعجِّلات للنضج.

خرجت من عند مدام (ش) الظريفة وهي تحييني تحية خليجية علىٰ سبيل المعاونة علىٰ التقمص، وكالعادة لم تسأل زبونتها غريبة

الأطوار عن السبب في تغيير الزي والملامح؛ وأعتقد أنها تظنني مريضة نفسيًا تلهو بالتغيير وتحدياته، لكن الأمر يبدو مسليًا لها على أي حال.

ودخلت إلى معرض الكتاب وأنا متقمصة شخصية مسلمة سعودية، وقد صدَّقت نفسي إلى درجة عالية، كنت من أب سعودي وأم مصرية، هذا ما ادَّعيته لبعض من تعمدت التعرف إليهن في سرايا المعرض لاختبار مدى توفيقي في التقمص، هذا الادعاء سمح لي بالاحتفاظ بقدرتي على إقناع الآخرين طالما أنني لا أتقن اللهجة تمام الإتقان.

وبعد أن اطمأننت لكوني مقنعة، ظهرت أمام أحد المبشرين الشباب عند (. . . .)، وأنا أعرف جيدًا أنه سيلحظني، وسيتحفز للتعرف إليَّ، ثم سيتفرغ لي، فالأنثى هي الأكثر جذبًا للاهتمام والحماس فيما يتعلق بالاستمالة الدينية، ويخيَّل لي أن الأمر كذلك عند المسلمين. والتبشير في القادمين من صحراء الجزيرة العربية الذين لم تصلهم رسالة المسيح أكثر جذبًا للاهتمام أيضًا بالمقارنة ببقية العالم، وخصوصًا أهل السعودية، وأنا أجمع بين الميزتين، أنثى وسعودية، فلن يمر من هنا من هو أغلى مني؛ لذا وقفت قليلًا أدندن وأنا أنظر للكتب وأدلل نفسي بالشعور الذي يسيطر على الزبون (اللقطة) الذي لا يمكن التفريط فيه، الزبون الذي يعرف أن أحدًا ما سيهرول إليه ويترك كل أشغاله. ورسمت على وجهي تلك

الملامح لإنسانة ليست علىٰ عجلة من أمرها، تتصف بالمرونة والفضول.

وبالفعل تقدم (ج.ب) للتعرف إليَّ بطريقة رقيقة فيها مسحة من الإعجاب بالنفس، ورددت علىٰ ترحابه بلهجة خليجية. وادعىٰ أن له أصدقاءَ كثيرين من الخليج، وسألني عن جنسيتي، فقلت له إنني سعودية من أم مصرية، فقال إنني إذن لست ضيفة لأني من أم مصرية، وكذلك لأني سعودية، فابتسمت، واندفعت كفتاة تلقائية ما في قلبها علىٰ لسانها وقلت إنكم كمسيحيين لا ترتاحون لنا نحن السعوديين، وتسموننا (الوهابيين) كما يسمينا بعض المسلمين؛ فنفىٰ بشدة أن يكون من هذا الصنف ضيق الأفق، فالعنصرية مرفوضة تمامًا، واستدل بأعمال الرسل ([٣٤] **فَفَتَحَ بُطْرُسُ فَاهُ وَقَالَ: «بِالْحَقِّ أَنَا أَجِدُ أَنَّ اللهَ لاَ يَقْبَلُ الْوُجُوهَ [٣٥] بَلْ فِي كُلِّ أُمَّةٍ، الَّذِي يَتَّقِيهِ وَيَصْنَعُ الْبِرَّ مَقْبُولٌ عِنْدَهُ»**. [أعمال ١٠: ٣٤-٣٥]، وقال إنه يعرف من خلال المعاشرة أن الصورة الذهنية عن السعوديين كمتشددين فيها تعميم سخيف، ففيهم الكريم والمضياف، والمتسامح، والتعميم لا دين له، وكل شعب وكل ملَّة بها من يكرهون الآخر، وقال إنه تلقىٰ دعوة كريمة علىٰ العشاء منذ ثلاثة أيام في مطعم في المهندسين وأكل (المندي) وأعجبه جدًّا، فخفت أن يسألني عن طريقة إعداده، ثم قال إنه يحب البخور كما يحبه السعوديون، وإن حب البخور يجمع ما بين الأرثوذكس

والخليجيين، هذا بالإضافة إلىٰ ما يجمع بين الرهبان والخليجيين من حب الخلاء والبرِّ والبعد عن صخب المدينة. لا شك أنه كان مستعدًا بشكل جيد للتأثير في الخليجيين عن طريق إبداء قدر عالٍ من التقدير لثقافتهم ونمط حياتهم، من دون التورط بكلمة واحدة في صالح الإسلام نفسه، وأنا بطبيعة الحال لم يكن لدي ما يمنع من التصريح بإعجابي بمصر وأهلها.

وأذكر في حواري معه ابتسامة الذين يشعرون بالظلم، التي ارتسمت علىٰ وجهه عندما قلت له إنني سمعت أن المسيح كان يتعبد إلىٰ الله علانية، ولم يصرِّح بأنه إله في أي إنجيل من الأناجيل، فلم تتبرعون بعبادة شخص لم يأمركم بذلك؟ لقد ابتسم ابتسامة من أصابه الملل من كثرة ترديد مقولة غير صحيحة، وقال: (خدعوك فقالوا)، ثم ذكر قول المسيح في إنجيل يوحنا (أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ)، قاله بملء الفم واثقًا من سطوته كدليل نصيِ، فاخترت أن أمثل نفس صدمة (م.س) عندما كلمته عما قاله فرعون وورد بالقرآن، وقلت له: (هل قال ذلك؟! أنا والآب واحد؟!)، فهز رأسه كأنما أشفت صدمتي غليله من ادعاءات المسلمين المهتمين بمناظرة المسيحيين بأن المسيح لم يصرِّح بالألوهية، ثم نكَّست رأسي ومثلت دور إنسانة تعرضت لهزة قوية نوعًا ما، وأخذت أنقل نظري بين عناوين الكتب المسيحية كأني مشتتة وفاقدة لشيء من توازني.

ولقد جئت بهذه الشخصية المسلمة لترفع عني الحرج في الجدال، إن حدث جدال، إلّا أن هذه الشخصية التي عشت فيها ارتجلت، وتصرفت وكأنها ليس لها موعد لعودتها إليَّ، وخرجتْ عن الدور المرسوم؛ ربما لأني عندما وضعت تفاصيلها في ضميري وتشرَّبتها، بدت لي تلقائية وبسيطة، وليس لها سابق عهد بالنقاشات الإسلامية المسيحية، ولم تقرأ الإنجيل من قبل. إذن وقفتْ هنا ببراءة، ولم تكن فتاة متمرسة في المناظرات تقدمت للإيقاع بأحد المبشرين لعلها تهديه للإسلام، أو علىٰ الأقل تحطم معنوياته المرتفعة في عمله في التبشير. هذا ما جعل (فاطمة) لا ترغب في الجدل وتبدو مرنة ومصغية، أما عن أسبابي أنا ماري، فربما لأني وجدت نفسي راغبة في الاستمتاع قليلًا بدور الفريسة، أن أرىٰ نشوة الزحف البطيء في عينيه؛ لأني لم أتمكن أبدًا من زحزحة أي شخص مسلم ولو قليلًا عن عقيدته، ولم أتمتع بهذه اللحظات الجميلة من الإحاطة الواعية والمدروسة بشخص آخر، لم ألعب هذا الدور الإيجابي علىٰ الإطلاق، فارتضيت أن أتمتع بمعايشة هذا النجاح عن طريق قبول تمثيل دور الفريسة الثمينة، عن طريق هذه البنت السعودية كحيلة العينين التي عشت فيها، ولقد صُدِمت بأن الشخصيات التي نؤلفها، تستجيب لميولها التي أودعناها فيها، وتفضل أن تمارس درجة من الاستقلال بعد انطلاقها منَّا.

تلفتُّ حولي كأني قلقة بعض الشيء، وقلت له إن لي صديقات من نفس جنسيتي سألتقي بهن بعد نصف ساعة هنا، ومن الضروري أن لا يشعرن بأن هناك شيئًا غريبًا يحدث، فهز رأسه متفهمًا، ووعدته بأني سأمر عليه بالغد لأسمع منه كل ما عنده، فابتسم ابتسامة عريضة، وقال إنه يشعر أن المسيح يناديني ويرغب في التحدث إليَّ، ورجاني أن أرهف السمع للسيد المسيح بعض الوقت حينما أسمع بندائه يروح في أعماقي، وقال لي إن هذه لحظة تساوي العمر كله، فأُخذتُ قليلًا حتىٰ كأنني مسلمة بالفعل سحبتها الكلمات التي ينطقها بصوت مؤثر، فيما لاحظت وقوف إسلامي نحيف ببذلة كاملة ولحية بالقرب منا، يراقب الموقف وقد بدت عليه علامات الاستفزاز والغيرة الشديدة؛ مما جعلني أشعر بالقلق من هذه الغيرة ومما قد تؤدي إليه، وتراجعت خطوة لأحافظ علىٰ مسافة رصينة من المبشِّر، قلقت من هذه الغيرة قلقًا لا يخلو من استلطاف لها.

وشعرت بأن بعض النزعة إلىٰ النجاة، والعرَق في سبيلها، تضفي علىٰ الصيد الثمين جاذبية، وأن الاستسلام السريع أحيانًا ما يجعل الدعاة والمبشرين يحكمون علىٰ من استسلموا بالتفاهة، ولم أرغب في أن أبدو تافهة، فقلت له إن هناك بعض الدقائق الثمينة أمامي، وأنا أرغب في الاستفادة منها في فهم بعض الأشياء في عجالة بخصوص هذا القول للمسيح الذي جعلني أشعر أن الأمر لم

يكن كما كنت أسمع، إنني أرغب في أن أفهم شيئًا ما قبل أن أمشي: هل هذه المقولة للمسيح (أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ)، تعني تحديدًا أنه الآب نفسه، أي هو الابن والآب في الوقت نفسه؟ ألا يبدو هذا متناقضًا؟ فابتسم ابتسامًا تشجيعيًا واثقًا كمن تلقىٰ سؤالًا من طفلة تحاول ترتيب أفكارها البسيطة، وقال لي إنه سيشرح غدًا بهدوء وخطوة خطوة كيف أن المسيح ليس الآب، ومع ذلك فهو بسر الثالوث العظيم هو الإله الواحد، وكذلك فإن الآب هو الإله الواحد. فقلت له إن هذا يبدو مستعصيًا علىٰ الفهم البشري أن يكون كل منهما هو الله الواحد ومع ذلك فالآب غير الابن، وشردت في اتجاه الأرضية كمن يفكر، وأنا واثقة تمام الثقة من أنه لن يستطيع شرح كيف يكون الثلاثة واحدًا والواحد ثلاثة، لا في الغد ولا في الدورة القادمة من المعرض، ثم قلت له تعالَ نستقبل الكلام بطريقة بسيطة، لعل المسيح يقصد أنه والله في إيمان واحد يجب أن يعتنقه الناس، هذا الإيمان باقة واحدة (One package) فمن آمن بالله ولم يؤمن بالمسيح لم ينفعه إيمانه، مثلما تجمع شهادة التوحيد الإسلامية عندنا بين ذكر الله وذكر محمد، وخصوصًا أن المسيح مرسل لشعب يؤمن بالله بالأساس. وقلت، بمكر، يبدو لي أن هذا القول موجه لبعض اليهود ممن عاصروا المسيح، فأراد أن يقول لهم إنه بوجوده وتكليف الله له لم يعد ممكنًا علىٰ المؤمنين بالله إلّا أن يؤمنوا بهما معًا، هذا وإلّا لن ينفعهم إيمانهم، وأن من يرفضه كأنه يرفض من أرسله، تمامًا مثلما

أن من رفض موسىٰ في عهد موسىٰ كأنه رفض الله الذي أرسله، فابتسم ابتسامة من يشفق علىٰ الذي يبحر في بحر لا يعرفه، وقال لي: (واحدة .. واحدة يا آنسة فاطمة.. لا تستعجلي)، رغم أن ما ادعيت استنتاجه من أن الكلام كان موجهًا لليهود هو معلومة لا شك فيها. هو تلاعب عندما لم يعلِّق علىٰ ملحوظتي هذه بشأن اليهود التي توقعت عليها تعليقًا مادحًا لذكائي ونباهتي، ولكن ليس لي أن ألومه طالما أنني أغش بشأن الاستنتاج الذي لم يكن أكثر من معرفة ودراية من مسيحية مثله.

أهداني نسخة من الكتاب المقدس نظرت لها كمن يتعرف إليها لأول مرة، وجعلت اليدين ترتعشان قليلًا وأنا أتناول منه الكتاب، أهداني النسخة وهو يقول إن أمامك الكثير لتعرفيه، ومن هنا للغد، اختلي بنفسك واقرئي في هذا الإنجيل، وصلي لله من قلبك وقولي له: يا رب عرفني ذاتك، وتأكدي أنه سيرفع الغمامة عن عينيك، سيعلن نفسه لك لو فتحتِ قلبك، وستفهمين كل الأمور التي تعتقدين أنها مستعصية علىٰ الفهم، وأنا من ناحيتي سأصلي من أجلك كثيرًا. فقلت له بهدوء، و(رخامة): هل كان كلام المسيح موجهًا لتلاميذه أم لليهود كما توقَّعت؟ إذ كنت أشعر باستفزاز من تجاهله لملحوظتي، وبحزن من عدم انبهاره بتفكيري، فقال لي إن كل ما قاله المسيح سواء في هذا الموضع من الإنجيل أو غيره هو لنا نحن في جميع الأحوال، كل كلمة قالها كأنه قالها

في أذن كل واحد من المؤمنين به، لكن بالفعل كان من حوله في هذا الموقف بعض اليهود، وهذا لا يعني أن فكرة باقة (الإيمان) هي السبب في أن يقول إنه والآب واحد باعتباره مجرد نبي.

ورغم أنني كنت جاهزة لمحاصرته بأسلوب مدروس وهادئ، إلَّا أنني لم أرغب في ذلك، لم أرغب في تكديره، كنت مستمتعة بتفاؤله التبشيري، تفاؤله الذي سيؤكد له بعد ذهابي أن الروح القدس هيَّأ الأجواء بيني وبينه وساعده علىٰ قطع شوط جيد في وقت قياسي مع زبون خاص، إنه سيتمتع بعد قليل بإحساس مشعٍّ بالرضا عن الذات. كنت فقط أرغب في أن يشعر بالتفاؤل، وهذا ما أفكر فيه أحيانًا عندما أمر في الصباح علىٰ متجر خالٍ من الزبائن، وأشتري، وأنا أرقب بسعادة تلك الروح التي دبت في الرجل الخامد.

كان لدي الكثير من النقاط التي يمكنها أن تفسد عليه فرحته بخصوص الآية التي ذكرها، وتجعله يشعر أنها أيضًا ليست إعلانًا سافرًا عن الألوهية غير قابل لتفسير آخر، وتجعلها بالتأكيد، وعلىٰ الرغم من اعتزازنا الشديد كمسيحيين بها، أقل من تصريحات فرعون بالقرآن.

إن المسيح بنفسه الذي قال ذلك يفسد فرحة هذا المبشر، فاليهود كانوا هم الطرف الآخر الذي يوجِّه إليه المسيح كلامه وهو يقول (أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ)، عندما كان يتمشىٰ في رواق سليمان في

عيد التجديد، وأحاطوا به لسؤاله (إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهرًا) [يوحنا ١٠:٢٤]، وأجابهم علىٰ سؤالهم بما يفيد أنه المسيح (إني قلت لكم ولستم تؤمنون) [يوحنا ١٠:٢٥]. إذن لم يكن هناك بالتأكيد تساؤل من جانبهم عن ألوهيته، كان السؤال عن مسيحانيته، فإذا جاء ختم رده هكذا (أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ) [يوحنا ١٠:٣٠]، فمن الممكن حمله علىٰ معنىٰ مجازي كأنه يعني: نعم أنا مسيح الله المؤيد منه والمستحق للإيمان من المؤمنين به.

وسيختلف رد فعل اليهود حسب الفهم، إما أن ينظروا إلىٰ كلامه باعتباره من المجاز الذي يثبت له مكانة عظيمة عند الله، أو ينظروا إلىٰ كلامه باعتباره تصريحًا لاهوتيًا في منتهىٰ الخطورة يتعارض مع عقيدة التوحيد الراسخة عندهم. وهم فهموا أنه يدعي الألوهية بهذه الكلمات، مثلما نفهم نحن كمسيحيين، واستعدوا لمواجهة هذا الادعاء المخيف بشكل عنيف (فَتَنَاوَلَ الْيَهُودُ أَيْضًا حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ) [يوحنا١٠:٣١]، وبدا المسيح مستنكرًا لرد فعلهم يشعر بالغبن والترصد بل والجحود، بدليل أنه قال (أَعْمَالًا كَثِيرَةً حَسَنَةً أَرَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَبِي- بِسَبَبِ أَيِّ عَمَلٍ مِنْهَا تَرْجُمُونَنِي؟) [يوحنا ١٠:٣٢]، وهذا يعني من ضمن ما يعني شيئًا ناصعًا مثيرًا للتأمل، وهو أنه لم يكن يتخيل تلك الشحنة الفائقة في تعبيره (أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ) التي استشعرها اليهود واستشعرناها نحن أيضًا، إنه لم يكن يظن أن تعبيره ملغَّم كما ظن اليهود .

وأكد اليهود علىٰ السبب الذي يدفعهم لفعل ذلك (لَسْنَا نَرْجُمُكَ لأَجْلِ عَمَلٍ حَسَنٍ، بَلْ لأَجْلِ تَجْدِيفٍ، فَإِنَّكَ وَأَنْتَ إِنْسَانٌ تَجْعَلُ نَفْسَكَ إِلهًا) [يوحنا ١٠:٣٣]؛ هكذا برروا تصرفهم. وهناك ردود فعل متوقعة من المسيح، إما أن ينسحب دون أن يوضح أي شيء ويضع نهاية مفتوحة، وهو لم يفعل ذلك، أو يؤكد ما استنتجوه إن كان يقصده علىٰ النحو الذي وصل إلىٰ أذهانهم ويقول: أنا إله بالفعل، وهو لم يفعل ذلك أيضًا، ولم يبق إلَّا أن يؤكد مجازية تعبيره، وأن ثمة سوء فهم لكلامه، وهذا ما فعله وبسرعة.

لقد احتج بالكتاب علىٰ الفور، ليؤكد أنه تحرك في حدود المسموح وما تتحمله ثقافة التعبير الديني اليهودي في مديح الأنبياء ورجال الله ([٣٤] أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «أَلَيْسَ مَكْتُوبًا فِي نَامُوسِكُمْ: أَنَا قُلْتُ إِنَّكُمْ آلِهَةٌ؟ [٣٥] إِنْ قَالَ آلِهَةٌ لأُولئِكَ الَّذِينَ صَارَتْ إِلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ، وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يُنْقَضَ الْمَكْتُوبُ، [٣٦] فَالَّذِي قَدَّسَهُ الآبُ وَأَرْسَلَهُ إِلَىٰ الْعَالَمِ، أَتَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ تُجَدِّفُ، لأَنِّي قُلْتُ: إِنِّي ابْنُ اللهِ؟) [يوحنا ١٠: ٣٤- ٣٨]، إذن هو يقول إنه لا يطلب لنفسه أكثر مما هو مسموح به لمن صارت إليهم كلمة الله، وهم آلهة بالمجاز لا أكثر بالطبع. إذن الدليل النصي الأهم من أقوال المسيح علىٰ ألوهيته، الذي لم يظهر إلَّا في إنجيل واحد فقط من الأناجيل الأربعة، قد فرَّغه المسيح من محتواه اللاهوتي قبل مرور دقيقتين علىٰ نطقه به.

قلت له إننا افتتحنا حوارًا جيدًا سنكمله في الغد، وسأسجل أفكاري في ورقة وأقدمها له في لقائنا، وعندي استعداد لأن أستمع لكل ما عنده، فهز رأسه مبتسمًا، وقال لي: أنتِ إنسانة شجاعة! وأخذ يتكلم بالحماسة نفسها التي تنتاب بائعًا للموسوعات في مصر وجد أخيرًا زبونًا واعدًا، بينما شردت أنا فيما يمكن أن يصدر من الشاب الملتحي.

مضيت من أمام (ج ب) وأنا أسرع الخطىٰ بعد أن اعتذرت إليه لكوني لا أستطيع إعطاءه رقم جوالي، مضيت وحدي وقد سيطر عليَّ شعور بأن المسلم الملتحي الذي يرتدي بذلة يتتبعني، وحاولت إقناع نفسي أن هذا مجرد وهم، لكني التفتُّ ووجدته ورائي بالفعل يتابعني بنظرات جادة، فراوغت بين الكتل البشرية وأنا أشعر باضطراب، وبعض الدوار من الزحام والضجيج، حتىٰ فطنت إلىٰ أنه يجب أن أتوارىٰ في غابة من مرتديات السواد مثلي، ودقيقة واحدة وكنت منهمكة في التقليب الشكلي في رفوف إحدىٰ صالات دور النشر الإسلامية بين كتلة متماوجة من المنتقبات والمحجبات، بين من تسأل عن كتاب مسند الإمام الفلاني ومن تقترح كتاب (العلل) أو ما شابه، وشردت في إمكانية توفر حاسة ما ورائية نشيطة لدىٰ المتدينات المتحمسات يمكنهن أن يكتشفن بها أن تلك الغائبة بينهن ليست مسلمة، تمامًا مثلما تسيطر علىٰ المسلمين فكرة أن المسلم المتسلل بين حشد من المسيحيين داخل

الكنيسة يمكن للقس بحاسته الماورائية أن يكتشفه، فيقول: يوجد بيننا هنا أحد (المحمديين).

أفقت من شرودي ووجدت صاحب البذلة يستدير بعد أن افتقدني وينصرف إلىٰ حال سبيله، كان يرغب بالتأكيد في معاتبتي علىٰ أن أعطيت أذني لمبشِّر مسيحي شاب، ولم يكن بإمكاني أن أفاجئه إن تواجهنا بأن هذه التي تقف أمامه بغطاء رأس كأي مسلمة، وترتدي قفازين، ليست إلَّا شابة مسيحية متنكِّرة سمعت الكثير من كلام المبشرين، ولم يعد يؤثر في قلبها أغلب هذا الكلام، شابة حزينة، قلقة، جاءت إلىٰ هنا كفاطمة، لترىٰ الأمور من الخارج؛ لتتعرض، وهي مسيحية أبًا عن جد، لتبشير آخر، مدهش، تعود به روحها الهاربة طائعة راضية، إلىٰ البيت، وتغلق الباب من ورائها. هذا هو ما أردت، لكني وجدت الكلام ككل الكلام. فيا عزيزي الذي كان يطاردني، ثم مضىٰ متأسفًا لأنه لم يلحق بي، هذه الفتاة التي تحسرت علىٰ أنك لم تعظها، ستموت بعد قليل تحت خلاط المياه في كوافير مدام (ش) الصبور غير المتسائلة.

نبي الصدفة

جدتي أمامي وبيننا الورد البلدي الأبيض علىٰ الطاولة، نتقاسم ابتسامة طويلة حانية، وأنا أسمعها ببعض الصعوبة؛ بسَبب لغط الناس الذي يعلو علىٰ النبرة الهادئة للمطرب، وأودُّ أن ترحم حنجرتها التي تضغط عليها، وتؤجل حديثها معي عن وجهة نظرها المحببة التي أعرفها، والتي يمكنني أن أسمعها مرة أخرىٰ عندما نختلي في بيتنا، أو في أي مكان هادئ، وليس في هذا الفرح المقام في الشارع.

بعد عدة تجارب كلها جاءت بنهايات سيئة ما زلت أؤمن، وسأظل أؤمن أن أول وقتي في فرح مُقَام في شارع كهذا الذي دُعِيْنَا إليه، هو الوقت الذي لي، وقت البهجة، الذي يخدعني كل مرة وينتهي فجأة، ويفلت مني قبل أن أفلت منه؛ ليندلع وقت الجنون، فأحمل حقيبة اليد، وأهرب مذعورة من الفوضىٰ العارمة، من الروح الشيطانية التي حلَّت علىٰ المكان بغتة، ومضىٰ تحريضها هنا

وهناك كضربة الوباء الشديد، أهرب وأنا أنظر بدهشة لأفاعيل الناس الذين ضاقوا بزينتهم، وانفجر احتجاجهم علىٰ أنهم تمزقوا هنا، بين كبرياء الموسيقىٰ العاتية وإحباطهم الشخصي، بين هندامهم الذي أصلحوه ونفوسهم التي ما زالت مهلهلة.

لأني أعرف ما هو قادم، وعن خبرة، أحب أن أغتنم هذا الوقت الأول، وقت الأنسام الطيبة، في الابتهاج بالناس، وهم يتوافدون ويتخذون مقاعدهم، ووجوههم يعلوها شيء كالتفاؤل والحياء، شاعرين بالرضا عن النفس وعمن حولهم، في الابتهاج بهم وهم يستعيدون طفولة قلوبهم في أول الليلة، منسجمين في بهجة الحفل، سابحين برفق في أنس الليلة السعيدة، ناسين تزمتهم وصبرهم وأشياءهم المؤجلة، ممتلئين معًا بالسرور الجماعي، كذلك السرور الذي تمتلئ به البطات الصغار عندما تنحدر إلىٰ الماء بخطىٰ الخجل والفضول، وتستعين بالله وتشق الماء بصدورها اللينة؛ فتشعر تلك الكائنات اللطيفة السابحة، بفيض من سعادة إلهية ينتفض لها كيانها المرهف البريء، مسحورة سحرًا أبيض بالشراكة، الشراكة في تلك الرعشات الأُوْلَىٰ وذلك الالتذاذ الغامر.

تتحدث جدتي معي في ذلك الوقت الأول -ونحن بين بياض السحْر والورد، محاطتان بالرضا والجمال والرجاء الطيب، وثالثنا العبير- عن الاختلاف الواسع بين نساء الأجيال القديمة والنساء

الجدد: كانت النساء يا ماري أقوىٰ إيمانًا بالزوج، وأضعف بصرًا بعيوبه، كانت الواحدة منهن تؤمن بأن ربها فوق، ثم هذا الزوج الذي جمع الله بينها وبينه تحت، وكثيرات منهن كن يمتلكن في صميم أنوثتهن صلابة كصلابة البحارة المعتادين علىٰ الأهوال، وكن يلبثن في العناء المكتوب بأن ينزحن كل يوم بلا هوادة ذلك الماء الذي يتسرب في المراكب المائلة، مبحرات بمراكب الزوجية تلك بغير راحة، إلىٰ مرافئ الموت بأشرعة مهلهلة.

وفي هذه الأثناء، كنت أداعب بأناملي أوراق الورد الأبيض الندية، كأن نفسي تحنُّ إلىٰ التمتع بهذا الوقت بغير الاستماع، بينما كانت نبرة جدتي تعلن عن تحرُّك كل أشواقها المعطَّرة للسرد. وبان عليها من شرودها في وجهي أنها تفتش في ذاكرتها القوية العامرة عن قصة مؤثرة من حياة أحد لم تحكها لي من قبل؛ حتىٰ أرىٰ الطينة الأخرىٰ التي خُلِقَتْ منها نساء ما قبل الألفية الجديدة. تفتش في الذاكرة بحرقة؛ لأنها شعرت من تلفُّتِ عينيَّ بأني أسمع علىٰ سبيل المجاملة، وأني لا أريد الآن أن أفهم، بل أريد أن أعوم. وإذ بزوجة المستشار الخمسينية الجميلة، ذات الوجه المثلث المنير، والذقن المدبب الساحر، والجسد شبه العذري، في فستانها الخلاب الشيفون باللون التوتي، ترمي نظرة جانبية إلينا في أثناء إنصاتها المجامل لامرأة بدينة ترتدي زيًا كزي رجال البحرية تجلس معها علىٰ الطاولة. كانت نظرة طيبة روحية، كتلك النظرة الجانبية

الخاطفة التي يتحفنا بها الموتىٰ في المنامات السعيدة، ثم هزت كفها برقة بالتحية إلينا، وأشارت إلىٰ أنها قادمة إلينا بعد قليل لترحب بنا، وأومأتْ إلىٰ البدينة بشكل لطيف؛ لتعبر عن اعتذارها إلينا عن اضطرارها للجلوس معها قليلًا، ثم أرسلتْ إلىٰ جدتي قبلة علىٰ الهواء، أيضًا كأن هذه القبلة من وراء عالمنا هذا.

أشارت جدتي بذقنها إلىٰ هذه السيدة الجميلة، ومالت برأسها للأمام أكثر حتىٰ أسمعها فَمِلْتُ ناحيتها، وقالت: انظري إلىٰ هذه اليمامة البيضاء الساهمة، التي تشبه في رقتها السيدات الناعمات، اللائي يظهرن في إعلانات الصابون الدولية، هذه المرأة التي تكتسي برونق خاص، والتي تحتفظ ببشرة يندر أن تحتفظ بها امرأة في الخمسينيات من عمرها -وللعلم لم أكن أقل منها نضارة وأنا في مثل عمرها، وصوري تشهد بذلك- هذه المرأة هي نموذج للصبر والحنكة والرضا، ولم يحفظ لها شبابها إلَّا الاحتمال، والرضا بالمقسوم، وإبداء السرور بالمتاح؛ فقد كانت فتاة يتيمة بارعة الجمال، يتمنىٰ الكل وصلها، وعرفتُ من أمها -أم هذه الجميلة، عندما كانت تلك الجميلة شابة صغيرة- أنه حام حولها رجال ميسورون سفلة، تكلموا مثل آباء متعاطفين، وتحججوا بتوظيف هذه اليتيمة التي تخرجت في معهد التعاون، ثم اتضح أنهم يتقرَّبون للإمساك بتلك اليمامة البيضاء من جناحيها. كانت الأم تقول ذلك وهي مشحونة بالغيظ، ويداها مشدودتان كمخالب نسر،

كأنها تستحضر وهي تبوح لي وجوههم الدنيئة ونظراتهم المتحرقة، وكانت مشحونة أيضًا بالقلق، كأنها ما زالت تشعر بالتهديد من محاولاتهم التي باءت بالفشل!

ولفَّ حولها عدد من المفلسين الذين لا يملكون إلَّا التنهُّد، والسهر في الشرفات المضاءة، ينزفون الحزن والحنان، وتسليط أخواتهم الصغار بالنهار للاقتراب منها والتودد إليها؛ فيأتينها وفي أعينهن الصغيرة المستديرة مكر أكبر كثيرًا من أعمارهن. وهؤلاء المتنهدون الذين ينتظرون عودة الصغيرات بأي شيء، أي شيء، لا يعرفون أن طريقتهم الصبيانية، التي يظنونها ماكرة ولا تخطر علىٰ بال اليمامة، وتؤتي ثمارها بعد فترة، هي طريقة مكشوفة ومكررة، ولن تقع بها في الحب فتاة مثلها. وقد وصل الوله والاجتراء بأحد جيران القمر أن وضع لها خطاب الاعتراف، الذي يبثها فيه لواعج قلبه المحترق في كافولة ابن خالتها الرضيع، الذي وضعته بين الأطفال أمام البيت لتدخل وتطفئ النار تحت الطعام، وتمنىٰ في نهايته أن يصلها الخطاب بحالة جيدة.

كانت مُلَاحقَة، ولكنها كانت يقظة، ومدركة للظروف التي تعيش فيها أسرتها، تلك الأسرة التي سقط عائلها منها ميتًا فجأة، وكان لديها أم، أو بالأحرىٰ كانت لدىٰ أم، تجعلها في حالة دائمة من الانتباه بموهبتها من الحزم والوسوسة، وتجعلها مضطرة للاعتراف حتىٰ بحجم الابتذال والتسيب في أن يسقط الغطاء عن

فتاة شهية فيتكشَّف جسمها المستضاء في أثناء نومها. أمْ لم تكن ترىٰ أي ذنب في بعض الخفة التي تبديها الفتيات من حولها اللواتي لا يحظين بالجمال للفت عريس هنا أو هناك؛ وحجتها أن الناس يفهمون ذلك ويتغاضون عنه، لكن هذه الخفة إن جاءت من فتاة مبهرة مثل بنتها؛ فتُعد من التهور الذي يطلق في الفحول مواهب التحطيم واللصوصية، فعرفتْ تلك اليمامة وهي تقبض علىٰ القضبان التي تحيطها بها أمها كل يوم من فرط الشفقة والذعر، عرفت أنه لا فرصة لفتاة جميلة وفقيرة ويتيمة مثلها لأن تصنع بنفسها حظها في الزواج، ولا فسحة بين تلك القضبان يمر منها صدرها إلىٰ فارس علىٰ فرس بيضاء قد يعبر ذات خطفة ويصفِّر في جنح الليل.

واسترسلت جدتي في السرد، ومن سوء الحظ أنني ظللت متشبثة بالتمتع بالنظر بالناس حولي، فضاع مني كثيرًا من حديثها المشوِّق، غير أني أذكر مما قالت أنه تقدم إلىٰ خطبة اليمامة البيضاء إسكافي شاب يستأجر الدكان الضيق في الطابق الأرضي في البيت الذي تسكن فيه، كلَّم أمها، وظل طلبه في طي الكتمان عن الناس. وكانت الأم تؤيد كل التأييد هذا العريس، الذي شعرت البنت بتعاملها معه أنه غير مناسب، وأن فجوة كبيرة تحجزه عنها؛ لكن الأم ظلت تكافح من أجل أن تقنعها به، لتتخلص من عبء جمالها الباهر المخيف، الذي لا تستطيع أسرة فقيرة فقدت عائلها

أن تحميه. وظلت الشابة في صراع بين أن ترضي أمها وتعطيها الموافقة ويتم إعلان الخطوبة، وبين إحساسها الذي يتأكد يومًا بعد يوم أنه غير مناسب لها، وأنه قد يأتي لها من هو أفضل منه، فقط لو صبرت أمها وقللت من مخاوفها من شر المختبئ.

هذه ذكريات من أيام الفقر والشباب للمرأة الجميلة التي تجلس أمامنا في الفرح، التي لم يكن لديَّ فضول كبير للتعرف إليها عندما كانت ضمن موجة أخيرة من موجات الحنين التي تغمر جدتي الاجتماعية الودود، عندما تفتح ألبومًا من ألبومات صورها، وتشرد في صورة شخص ما وتبتسم إليه، وتحن إلىٰ رؤيته، وتتحرك بحثًا عنه مفتشة في العناوين القديمة والأرقام، كأنها تظن أنها ستجد أحبابها القدامىٰ كما هم ليس عليهم إلا أثر الزمن: ودودين، ولديهم وقت فراغ، ويسعدون بحديث الذكريات.

جئتُ مع جدتي منذ أسبوعين لزيارة محل المجوهرات، الذي فتحته اليمامة هنا منذ سنوات بالشارع؛ لأن جدتي أرادت أن تمهد للقاء بها، تضحكان فيه من ذكريات الزمن الجميل. اقتربنا من المحل الذي له ذوق رفيع في الديكور كأنه في مدينة سياحية، وأخذنا ننظر للواجهة ومعروضاتها، وعندما اقتربنا من الباب خرج من المحل شاب وسيم ومتغطرس، شعره الناعم الطويل يتطاير مع الهواء، وابتسم لنا ابتسامة استعراضية لزجة ردت عليها جدتي بابتسامتها الطيبة التي تنير وجهها، وكان فرحًا بنفسه كما لو كان قد اكتشف وسامته لتوِّه.

دخلنا، ووقع اختياري علىٰ خاتم جميل رفيع الذوق، من بين القطع التي لا يمكن تخيل أن تعرض في محل في حي شعبي كهذا الحي، وقد كنت متعجبة جدًّا من أن يفكر أحد ما في عرض هذا المستوىٰ العالي من الذوق والأسعار هنا؛ لا يمكن أن يظن أحد أن هذا المحل تم افتتاحه في هذه الناحية من أجل التربح، بل التباهي والتباهي فقط.

لم تكن السيدة بالمحل، وعرفنا أنها قليلًا ما تتواجد فيه، وإن تواجدت احتست قهوتها كزائرة أنيقة ومضت بسرعة. وجدنا في استقبالنا موظفة بسيطة بيضاء شعبية وساذجة، وكانت مهذبة علىٰ أية حال، ومضطربة قليلًا، ومتبلدة نوعًا فيما يخص استقبالنا كزبائن، وهذا يبدو لأنها اعتادت أن يدخل الناس ويُصعقوا من الفخامة ولا يشتروا شيئًا. أخذنا ننظر في المعروضات، فيما هي خطفت نظرتين إلىٰ المرايا تتأكد من انضباط ملابسها عليها، ومسحت بالمنديل هالة الكحل السوداء التي لطخت قليلًا حول عينيها، والتي تعطيها ملامح عاشقة استيقظت متأخرًا، ثم أشرتُ لها بأني أريد شراء هذا الخاتم الذي راق لي في البدء، واشتريناه فارتبكت الفتاة قليلًا ونحن ننقدها ثمنه؛ إذ يبدو أن هذا نادر ما يحدث، وأعادت استقبالنا من جديد، أهلا وسهلًا، شرفتم وآنستم.

جدتي لم تحكِ لها أنها من معارف السيدة صاحبة المحل، حافظت علىٰ أسلوبها الجميل والصعب بألَّا تحصل علىٰ خصم من

معارفها؛ تجنبًا لأن تأخذ شيئًا بسبب الإحراج، لذا لم تتصل باليمامة وتخبرها بزيارتنا المفاجئة للمحل إلاَّ بعد أن اشترينا وعدنا للبيت. كانت جدتي تتكلم كعاشق ولهان أتعبه الغياب، وكانت اليمامة تقهقه في الناحية الثانية من أسلوب جدتي الظريف الغريب.

لم نرها ولم نجلس معها المرة السابقة عند زيارتنا لمحلها الفاخر المعروضات، لكننا لم نعد بالخاتم فقط، فها نحن اليوم نلبي دعوتها لنا عبر الجوال عندما أخبرتها جدتي بزيارتنا وشرائنا للخاتم، وجئنا لفرح حفيد زوجها، ابن بنته من زوجته الأولىٰ، ورأيناها ولم نجلس معها إلىٰ الآن، فقط صافحت جدتي قبل جلوسنا ثم انشغلت عنا، وهذا لا يزعج جدتي؛ فهي تحب أن تحرك الأمور بلطف وتمهل، وتتمتع باللحظات التي تفتح فيها نافذة الذكريات، وتطل منها علىٰ إنسان عرفته من قبل وغاب عنها، وتشاهده وتحوم حوله، وتبدأ في الاقتراب منه، أكثر مما تتمتع إن انفردت به ولم يعد بعيدًا، إنها تحب أن تشاهد العلاقة وهي تتمطَّىٰ.

ويمر الوقت ولا تأتي اليمامة، ولم تستغل تلك اللحظات التي كانت البدينة التي ترتدي زيًا كزي رجال البحرية تتوقف فيها عن الكلام لتستأذن منها وتأتينا قليلًا، كأن شيئًا ما يخيف تلك اليمامة من أن تهبط إلينا.

إن هذه اليمامة البيضاء تمتعت بالتأكيد في الماضي بتعبيرات جدتي الرقيقة التي تقدِّر الجمال، ولا تصمت في حضرته، ولا تقدر علىٰ استفزازه، وذاقت من مغازلتها اللطيفة التي تتفوق بها علىٰ الرجال الخبراء بالغزل، حتىٰ خلال المكالمة قالت لها جدتي فيها: إنها متأكدة من أن العشر سنوات الأخيرة التي لم ترها فيها، لم تترك أي أثر علىٰ صفحة ذلك الوجه الجميل. وكان يبدو من صوتها امتنان بالغ.

هي تعلم جيدًا كيف تبدو شابة من هذه المسافة، تعلم أن سحرها في النأي، وكبرياءها في المسافة، وعرشها علىٰ الإطلالة. ولعلها تحذر أن تفي بوعدها وتأتي إلىٰ طاولتنا، حتىٰ لا تنكشف عندما لا تبدو لينة في جلوسها كالشابات، عندما تجلس وهي تستند علىٰ ذراع الكرسي وتحيط نفسها ببعض العناية، عندما يعترف لنا العنق، وظهْر الكفين، بما حاولت كتمانه من أثر السنين، عندما نرىٰ البياض في منابت الشعر المصبوغ، ونصغي للجفاف الذي تتركه السنون في النبرة. إن كان الأمر كذلك، فأنا أرجوها، كرامة لجمالها من بعيد أن لا تجيء.

انقطع استرسالنا وشهقنا أنا وجدتي، وتمسَّكنا بمفرش الطاولة مرعوبتين، كأن وقت البهجة قد انفضَّ بغتة والفرح يخرب، لقد أفقنا علىٰ شيء كالقذيفة، وخيل إليَّ لثوانٍ قليلة أنه قد حدث هجوم مباغت وعنيف، كما كنت أخشىٰ؛ حتىٰ استوعبنا ما حدث والقلب

ما زال ينبض بشدة، لقد ألقت امرأة من الأهالي علىٰ الحاضرين من شرفتها ملء كفيها من الحلوىٰ والشيكولاتة علىٰ سبيل المجاملة والمشاركة القلبية لأصحاب الليلة. صعقة الحلوىٰ هذه، جددت شعوري بانتظار مفاجأة سيئة، حتىٰ بعد أن لام أحد أفراد العائلة المرأة بيده وأمرها بالتوقف، وتبسم للناس وأشار بيديه كي يطمئنوا.

بعد قذيفة الحلوىٰ الهمجية، ملتُ علىٰ الورد علىٰ الطاولة وشممتُه، كأني أحاول أن أقنع نفسي بكوني مطمئنة، وأن الأمور ستظل علىٰ ما يرام، في جناب الورد الأبيض.

أتفحص وجوه الناس الكثيرين المطلين تجاه المسرح؛ ورغم أنها بدت وجوهًا متعقِّلة نوعًا ما ومتريثة، ولم يظهر تهورها، إلَّا أني أتنبأ رغم ذلك في صفحة كثير منها تلك الوجوه، وبسبب الخبرة والتشاؤم، بوجود استعداد داخلي للفوضىٰ.

هذه الضحكات، هذه النداءات، تلك النظرات المختطفة، كل هذا السرور حولي يختمر ببطء في بعضه البعض، كما كان يختمر في كل مرة، وسيختمر أكثر، ويفور ويتأجج مع أغنية صاخبة، ومع اللهاث، والجموح، والانحسار التدريجي للستر الجميل لمزيلات رائحة العرق والعطور الأصيلة والمقلدة، تعود معه للأجسام روائحها البدائية، ويرجع للأرواح المعلقة من عراقيبها في سقف الملل إحساسُها بقيمة الهفوة، وسيحدث ما كان

يحدث دائمًا: يصل السرور بالسرور إلىٰ ألّا يطيق نفسه، ولا يطيق الحاضرين، ولا يطيق المكان؛ حتىٰ ينقلب في لحظة هستيرية مفاجئة وفاجعة إلىٰ شكل من العداء المفرط الغريب.

أحاول أن أكون في ذلك الفرح أكثر تفاؤلًا، أحاول أن أظن أنه لا يوجد أي احتمال لاندلاع الصراخ وتطاير الكراسي من أي جهة، ولا انكسار المصابيح وزجاجات البيرة، وأن أظن أننا سنخرج أنا وجدتي سالمتين نضحك ونراجع أحداث الليلة الرائقة؛ لذا أخذت أنظر إلىٰ أصحاب الفرح وهم يمشون أمام الناس مبتسمين ومحيين، وقد ملأهم الشعور بالعزة والتعالي، يمشون مشي الطواويس، سواء مَنْ يرتدون الجلابيب البلدية منهم بغير ياقات، التي تنتصب منها أعناقهم في كامل الشموخ، أو من يرتدون البذلات الحديثة منهم، ويبدون فيها غالبًا كرؤوس عصابات أنيقين؛ تلك العائلة التي اختارت منذ زمن أن تتركز هنا في هذا الحي الشعبي، لتشعر بالصيت، وبالتفوق علىٰ الآخرين، ولتتحسن فرصها في الحصول علىٰ مقاعد نيابية. وبالفعل اطمأننتُ نوعًا ما، فأنا في النهاية في فرح لعائلة كبيرة من العائلات العريقة التي لها أصول ريفية، والتي تستطيع السيطرة علىٰ مناسباتها، ولا تتساهل في أمور كهذه، وتبدو متحفزة دائمًا لصيانة كبريائها من المفاجآت.

صحيح أن هناك إحساسًا بوجود نظام يبعث علىٰ الشعور بالأمن، ولكن حتىٰ هذا النظام كان فيه شيء مخيف، لم يكن هناك

شيء مخيف بقدر اللامساواة، كانت العائلة قد قسمت الفرح إلىٰ مستويين: المستوىٰ الأمامي للخاصة من المدعوين، وكنا أنا وجدتي من بينهم في نطاق الخدمة الفاخرة؛ حيث كنا نجلس علىٰ كراس مذهبة مخملية القماش، وأمام كل أسرة طاولة عليها مفرش أبيض نظيف، وزهرية ورد أبيض، وكؤوس، ومناديل، وباقة من العصائر الفاخرة المتنوعة، بالإضافة إلىٰ صحنين من المشويات والمعجنات. ثم هناك سياج من ورق الكريب وقصاصات الزينة والبالونات، ومن ورائه مستوىٰ العامة الصاخب الذي يقسمه ممر بين جناحين للرجال وللنساء، ويمتد إلىٰ مسافة طويلة تحت عناقيد الضوء المتقاطعة، حيث يجلس كل مدعو علىٰ كرسي خشبي، وطعامه الذي هو عبارة عن علبة ساندويتشات من الورق المقوىٰ في حجره.

جدتي أمامي تتراجع بظهرها للوراء، وقد اختارت أن تستريح قليلًا من الاسترسال، وخشبة المسرح علىٰ يساري، وقسم العامة علىٰ يميني، وكنا عند الحدود، وكانت هناك فتاة من العامة تجلس عند الحدود من الناحية الثانية، علىٰ بعد أربع خطوات مني، تشعر بالإعجاب بنفسها في الفستان الفيروزي المذهب بشريط علىٰ الذراعين، وبسمَّانة رجلها الجميلة الملفوفة، والماكياج الفاقع، وخط الكحل الفرعوني الذي يمتد علىٰ جانب العين ويكاد يلامس الأذن، والتسريحة التي شد فيها المصفِّف شعرها شدًا عنيفًا ومطَّ

جبهتها وسحب عينيها للخلف، كأنه كان يصارع لانتزاع شعرها من فروة الرأس.

وكانت تمضغ اللبانة وفمها مغلق، وتحاول أن تبدو بفم صغير كعلامة من علامات الرقة والجمال، إلَّا أنها كانت نشطة جدًّا في المضغ بطريقة عصبية تثير الضحك، وشردتُ في هذا الوجه وتعبيراته المتصنعة، وتلك النظرات التي تبدو لائمة للاشيء، كأني رأيت هذا الوجه وهاتين العينين من قبل، لكن لا أعرف إن كان هذا صحيحًا أم لا؟! نظرات عينيها المشدودتين بفعل تصفيفة الشعر اللاإنسانية، واللتين كانتا تلومان الفراغ، توجهتا إليَّ فجأة، وكساهما لثوانٍ معدودة هدوء نظرات ذئبة أصيبت بطلقة من قبل، وتعصر ذاكرتها لكي تتأكد من أن من يقف أمامها أعزل الآن ومحاصر هو من أصابها ذات نحس، ثم تأكدت الذئبة؛ فامتلأ كيانها بغضب مقدس، وصارت العينان تتناومان من أثر الحقد الرهيب.

لا أجد تفسيرًا لتلك النظرات غير أنها مُستفزَّة من جلوسي أنا كشابة قريبة من عمرها بين الضيوف المخصوصين، بينما تجلس هي هنا وهي بهذا الجمال وهذه السمَّانة بين العامة. ولكن هذا كثير، فأنا لم أختر شيئًا، كما أني لا أجلس هنا وحدي؛ هذا الحقد كثير عليَّ، كثير جدًّا، يكاد يجعلني أستسلم لها مسحورةً بهذا القدر الجليل وغير المبرر من الكراهية في عينيها.

فرضتُ علىٰ نفسي في نهاية الأمر، وحتىٰ تعتقني من أسر نظراتها المخيفة أن أتساهل وأبتسم لها ابتسامة ود وإعجاب، كانت ابتسامة موسعة وساذجة، كابتسامة من يخشون العقاب، أعتذر بها عن الفصل الطبقي الجارح لها، إلَّا أنها أماتت تلك الابتسامة علىٰ وجهي، بأن رفعت حاجبيها ومالت بنظراتها عني معرضة ومستهجنة ومستخفة، كأنها ظنت أني أغيظها، ووضعتْ ساقًا علىٰ ساق، حتىٰ تجعلني أرىٰ جيدًا الساق التي تشعرها بالتفوق. والحقيقة أني بلعت ريقي من الاضطراب لا من الغيرة، لا أتحمل أن أكون سببًا لشعور أحد بالظلم وعدم المساواة، مهما كان غير متصالح مع نفسه، ورضيتُ بأن تعرض بنظرها عني، واعتبرت أن هذا الإعراض نهاية للصراع الذي لم أختره، لكن اتضح أنها لم تسأمْ من النظر إليَّ وعادت توجه لي نظراتها الناهشة، نظرات الذئبة التي يسيل لعابها في حمَّىٰ الثأر القريب؛ فحوَّلت بصري بعيدًا عنها تجاه الوجه الغامض الوهمي لزوجة المستشار، التي كان يمكن أن تكون مدعوة في القسم الثاني الليلة بصحبة رجل إسكافي كان يصبغ شعره في شبابه بماء الأكسجين. ومن وجهها حولت وجهي تجاه المسرح، إلىٰ المطرب الرقيق الصوت، ذي الموهبة الجيدة، بعينيه التي بهما امتنان كسير، وثقة يخشىٰ أن تفلت منه مع الآثار المتسللة للزمن علىٰ وجهه الحسن والحنجرة، المطرب الذي تومض بسمته العريضة بحسرة الأربعيني الذي لم يحقق أحلام الظهور والشهرة،

وجسمه ووجهه اللذان كان يعدُهما بالأضواء والكرامة ما عادا يصدقانه، وأخذا يتأهبان للشيخوخة القادمة.

لكن النبرة الرومانسية للمطرب، وذلك الهدوء السارح في أشجانه الصوتية، ذكرني بهدوء الذئبة وهي تستقطر بشيء من الخشوع ماء حقدها المرير، فشردت فيها وأنا أنظر تجاهه، وسمعت في صوته الخفيت نداء وعيدها، والهلاوس التي يبعثها فرط الكراهية، وظللت أشعر بالاضطراب من إصرارها علىٰ التفكير فيَّ، وأحس بوهج نظراتها علىٰ صفحة وجهي.

وبينما كان المطرب يغني كأنه يشتكي، وجدتي تحكي عن المحاولات الحثيثة لأم اليمامة لإقناع اليمامة بالإسكافي، حتىٰ احترت في مصير اليمامة رغم أن وجودها اليوم أمامي يحسم أمر المصير، إذ بنا نغيب فجأة في ضجيج طلقات هادرة مصوبة إلىٰ السماء، أخرست كل شيء، وملأت الفضاء برائحة البارود، إلىٰ أن وضع المسلحون الموزعون علىٰ أطراف الفرح أسلحتهم في وقت واحد. شعرت وقتها بمزيد من الطمأنينة، وبأنه علىٰ الرغم من كونها من ورق، إلّا أن الفتاة ذئبية النظرات، لن تتخطىٰ حدود ورق الكريب التي رسمها رجال العائلة.

وجدتي تنقل لي مشاعر الأم عندما بدأت تكتشف في النهاية أن حربها المقدسة في الإسكافي كانت بغير داعٍ، وأن الذين ذكروا الإسكافي بسوء أمامها وتندّروا عليه وهم لا يعرفون أنه قد طلب يد

الجميلة، لم يكونوا شياطين حضرت خصيصًا لتعمل علىٰ الحط من شأنه. تأثرت بما قالت، وخفت أن يكون بداخلي امرأة تناضل مثلها بغير أي داع للنضال والمكابرة، وتعلن مقتها لشياطين ليسوا إلَّا بشرًا مثلها يرون ما لا ترغب في أن ترىٰ. قالت جدتي: وإنه لإحساس صعب جدًّا يا ماري، أن يعاني الإنسان بشدة من ألسنة الناس، الذين يتهكَّمون من شيء قد وجد نفسه فيه، كشريك حياة اختار أن يقترن به للنهاية، أو تجارة أغرم بها وسيضع فيها كل شقاء عمره، أو موهبة وهب نفسه لها كالكتابة أو الغناء، أو عقيدة اختار أن يتشبَّع بها ويموت عليها ويناضل فيها شياطين حقيقية أو من وحي الخيال، ويمتلئ بالغضب والاحتقار لهؤلاء الناس المتهجِّمين، الذين يراهم مثل كلاب قذرة مسعورة، تنبح عليه لتفقده عزيمته وإصراره، ويشعر بالغبن وهم يلاحقونه، ويسيئون لاختياره بوعي أو بغير وعي، ويضطرونه للعصبية والانزواء، ويظل يهرب منهم ويصون نفسه من عوائهم، ويظل مشحونًا ضدهم حتىٰ بعد أن يسأموا وينسوه، ويظل يلعنهم في سره ليلًا نهارًا حتىٰ بعد أن يودعوه؛ من شدة ما أتعبوه، من شدة قسوتهم عليه وهو يوجِّهونه في عماه اليقيني المطبق، ثم يكتشف في يوم ما، وهو لا يزال يعلف دابة حقده، أن هؤلاء الملاعين، المستفزين جدًّا، الذين يتميزون بضراوة عجيبة، كانوا علىٰ حق تمامًا.

شردت طويلًا مع هذه الكلمات التي قالتها ومسَّتني، وهزَّت أوتار قلبي بحزن، إلىٰ أن أفقت علىٰ إشراقة أمل لليمامة المهمومة، سطع علىٰ وجه جدتي وهي تحكي عن مجيء اليمامة مع أمها الخياطة إليها في بيتنا.

في أثناء تفصيل أمها يا ماري للفستان الأخير لي، باحت لي الجميلة، بنبرة مهذبة، بأنها لم تعد ترغب فيه، وأنها لم تعد تملك القدرة نفسها علىٰ اعتبار نفسها تشاهد شيئًا يخص فتاة أخرىٰ، لقد فاض الكيل بها، وباحت لي كيف أنها صدمت في لمعة عينيه البنيتين الواسعتين الجميلتين، فهي تأكدت من أن تلك اللمعة الفريدة، تقبع من خلفها العتمة اللانهائية للغباء. ورغم كل ما سمعت في تلك الليلة من نوادر الجاهل المغرور، الذي يجعل الإصرار علىٰ الاحتفاظ به نوعًا من العبث، ورغم كبواته الكثيرة التي لا يمكن تبريرها، إلَّا أن أمها، وحتىٰ ذلك اللقاء المطوَّل لتفصيل فستاني، كان يبدو عليها أنها لا تحب أن تشكوه لأحد أبدًا.

العريس الذي أوشكتا علىٰ الموافقة النهائية عليه صار شبيهًا باللقمة التي تدور في الحنك فلا تستسيغها النفس، والفارق رغمًا عنه وعنهما ينكشف يومًا بعد يوم، ويصيبهما بالامتعاض والحسرة، ووجه الأم اللائذة بالصمت كان يؤكد رغمًا عنها ذلك. الشيء الوحيد الذي قالته الأم في ذلك اللقاء -وهي تعترف، وكانت تنطق

ذلك بصعوبة، كأنها تحكي لي فصلًا مزريًا من خيانة سقطت فيها- أنها بدأت تغلق عليها غرفتها ليلًا في الآونة الأخيرة وتبكي بمفردها؛ لأن القديس المفاجئ، بدا وكأنه يتغير للأسوأ . . . وهو ككل الحقائق يا ماري لم يكن يتغير، بل يتضح.

وعلىٰ الرغم من أنها لم تكن ببالي كثيرًا في تلك الأيام، ولم تكن أكثر من بنت الخياطة الطيبة التي أخيط عندها بعض ثيابي، إلَّا أن القدر شاء أن أكون سببًا في زواجها دون أن أتعمد ذلك أو أفكر فيه، فزوجها المستشار، كبير هذه العائلة الذي دعينا الليلة علىٰ فرح حفيده من بنته من زوجته الأولىٰ، كان وقتها رجلًا ثريًا نافذًا وجيهًا، ترمَّل في منتصف العمر، وكنت علىٰ معرفة مباشرة به. كان بيني وبينه إعزاز وتقدير لاشتراكنا في حب اللغة الفرنسية؛ كان يقرأ بها كتب القانون، وكنت أقرأ الأدب. وعرض عليَّ كأنه يغريني أن يقرضني مراجع قانونية باللغة الفرنسية من مكتبته القيمة، وأن أقرضه رواياتي المفضلة بها، كي يرقق تعبيره. وبالفعل أرسلت له بشكل منتظم روايات ودواوين جميلة، يرسل الكتاب الذي فرغ من قراءته فأرسل له غيره، ولم أطلب أي مراجع قانونية. كانت الروايات تعود لي وعلىٰ صفحاتها أحكامه علىٰ سلوك الأبطال: متسرع، فوضوي، ثرثارة، فعل فاضح في مكان عام، يعرض علىٰ أخصائي لتحديد مدىٰ مسئوليته عن تصرفاته.

وكنت أجلس مع أخته الكبرىٰ بمفردنا في النادي ذات مساء، وقد أخبرتني أنها تبحث له عن عروس جميلة شابة هادئة الطباع، ومن أسرة بسيطة غير مزعجة وغير انتهازية، ولا يحبون أن يضجروا رجلًا مثله بمحاولة استغلال مركزه؛ إذ كان يرغب في الزواج من امرأة فقط، ولا يجد في الوقت ذاته لديه أي رغبة في التعرف أو التقرب إلىٰ عائلة ما بسبب المصاهرة، وهو لن يتمكن من تحجيم هذه الأواصر إن صاهر أسرة راقية، بينما يمكن لأسرة بسيطة أن تتأقلم مع هذا المزاج وتضبط نفسها عليه. لقد قال لأخته: فقط أريد أباجورة لغرفتي المظلمة، ولا أريد أن أزحم الغرفة بأي قطع يمكن أن تباع معها؛ فجعلتني هذه الشروط أشعر وأني أعرف قدم سندريلا التي تليق بهذا الحذاء، لاح لي كالبدر وجهها المشرق الذي رأيته ليلة أمس عندما جاءت بصحبة أمها كما ذكرتُ لك، لقد باحت لي كما قلت لك بجرحها، وكيف أن روحها المرهفة لم تعد تستسيغ الإسكافي، وكان في عيني أمها لوم علىٰ ذلك البوح، ثم راحت الجميلة في الحزن فزادها بهاءً، ولاذت بالصمت، حتىٰ لا تكدر أمها في احتضار إيمانها به، وكانتا كما قلت لك علىٰ درجة مزرية من المسكنة وقلة الحيلة، وكل واحدة منهما تنتظر من الأخرىٰ أن تتهوَّر وتنهي الأمر بمفردها.

فقلت لأخت المستشار وأنا أضحك: لو كان أخوكِ أصغر بعشرين عامًا لعرضت عليه فاتنة يتيمة لم يُرَ مثلها، ولا يعرف أهلها

المشاكل، وهم مثل أخيك ضعاف الشهية للثرثرة والتطفل، ولا يرغبون في أكثر من حياة وادعة يكسرون فيها خبزهم، بنت خياطتي الطيبة، إنها وهم!

أخته التي توفيت منذ سنوات، والتي ظننت أنها ستنزعج من مجرد طرح زواج المستشار من بنت خياطة أرملة، من يتيمة كان أبوها موظفًا بسيطًا بجمعية الأهرام الاستهلاكية، هزت رأسها كمن وضع علامة علىٰ مكان صيد ثمين ليعود إليه وحده، وأخذت بعض المعلومات القليلة مني وهي تمثل عدم الاكتراث، ثم غيرت مسار الحديث، وتكلمت عن الفساتين التي اشترتها الخميس الماضي من شارع الشواربي، لتمضي من بعدها في الأمر وحدها دون علمي.

لقد حسمت البنت أمرها بسرعة عندما تقدم لها المستشار للزواج منها، وافقت علىٰ الفور، وبشدة، ومن دون أن تنظر في عيني أمها لتعرف رأيها، رضيت به تمامًا رغم الفارق الذي يصل إلىٰ ستة وعشرين عامًا.

أول شيء نطقت به اليمامة عندما عرض عليها المستشار الزواج أمام أمها في شقة الأسرة المتواضعة كان كلمة واحدة، قالتها بكل شعور بالامتنان وهي تهز رأسها: (شكرًا) ... يا للبسطاء أحيانًا يا ماري!

وكان المستشار سعيدًا جدًا وهو يسمع هذه الكلمة التي لم يكن ليسمعها من عروس من نفس مستواه. ويبدو أن ما ظهر عليها

من ضعف أمامه، وإحساس بكونه عملاقًا لا تصدق نفسها بالاستحواذ عليه، قد سحره تمامًا وأرضاه وكرَّمه، ومسح من نفسه أي احتمال آخر لاختيار غيرها، وصارت في ثوانٍ ضالته الوحيدة التي يحب أن يكمل معها أيامه القادمة، التي يرغب في أن يعيشها منعمًا بالسلام والراحة، بغير طموح، مع امرأة غير منغصة، غير مكابرة.

وأمها أيضًا هزت رأسها بالموافقة وتهلل وجهها بالفرحة، ورفعت حاجبها علامة علىٰ الإحساس بالفخر به، وأخذت تروح وتجيء راغبة في حسن استقباله، وغلبتها طبيعتها الموسوسة عندما رجعت من المطبخ بزجاجة مشروب اسباتس وكوب نظيف وبعض مكعبات الثلج، وقالت له وعلىٰ وجهها ابتهاج واسع أوشك أن يكون ضحكًا: أنت قلت إنك تريد أن تتزوج من بنتي، أليس كذلك؟ فضحك وقال: نعم، وقال أيضًا إنه لا يريد من فتاته أن تخرج من هنا بحقيبة في يدها ولو كانت حقيبة يد.

لقد عاملوا المستشار كما يمكن أن يُعامل نبي مؤيد بالمعجزات، ظهر بالصدفة في جماعة منعزلة وخائفة، أنهكتها الأقدار والأوبئة، فتركوا كل شيء في أيديهم، وهرعوا إليه واتبعوه دون أن يتخلف منهم أحد، وسلموا له قلوبهم ومصائرهم، واكتفوا من الدنيا به كأجمل وآخر الأخبار.

يمكنك أن تقولي يا ماري إن المستشار الجليل قد رد لها اعتبارها أمام نفسها وأمام أمها التي كانت تصر علىٰ أنها ليست كثيرة علىٰ الإسكافي الذي يصبغ شعره بماء الأكسجين. لقد أخذهم من أنفسهم، بهدوء، وبطيبة رجل في منتصف العمر فيه شيء من أبوة وافرة وأنيقة. لحظتها لم يكن هناك أي معنىٰ للعمر، لقد ضاع معناه في الفارق بين اللباقة والسوقية، في الفارق بين العطر الباريسي الفاخر والرائحة النفاذة للكلّة التي كان الإسكافي يلصق بها كعوب الأحذية.

ليلتها باتت تحلم بهداياه الثمينة وبيتها الواسع، والمضي في صالة الوصول في المطارات بإيقاع طيب لحذائها علىٰ الأرضيات، وأعلىٰ رأسها نظارة شمسية عريضة كالهوانم، وباتت تحلم بالحنان العميق الذي يمكن أن يوفره لها بغير حساب رجل وقور وغير مندفع، يتكلم عن خبراته العظيمة في الحياة، والوزراء والمسئولين والكبار الذين يسميهم أصدقاءً شخصيين بغير أن يبدو مهتمًا كثيرًا بكونه يعرفهم، ذلك وهي تشم عبقًا عميقًا ينبعث من سنوات عمره، ومن صوف السترة الإنجليزي الفاخر وهي تضع رأسها علىٰ كتفه.

هكذا أنهت جدتي حديثها معي ونحن في عام ٢٠١٢م عن الرجل الجائزة، الذي ساقته الأقدار عام ١٩٧٨م لفتاة تتحمل أمها وتصبر عليها وتقبل بالمتاح، فنظرتُ إلىٰ المستشار المحال للمعاش بعد أن أنهت حديثها، فوجدته كأنه رجل آخر غير الذي حكت

عنه، وجدت العريس الذي تحكي عنه جَدًّا لعريس الليلة، وجدته في عامنا هذا وليلتنا تلك وقد أنهكته الشيخوخة ووسعت الفارق بينها وبينه علىٰ هذا النحو المحرج. نظرت إلىٰ المستشار المحال للمعاش، زوج اليمامة البيضاء، وساءلت نفسي إن كان هذا الرجل الذي يبدو أكبر من عمره بعشر سنوات أخرىٰ، يسمح ليده بارزة العروق بغير أي شعور بالذنب والخجل، بأن تمتد إلىٰ هذا الوجه النادر لأميرة إغريقية من النور والمرمر، وترتعش عليه بفعل العجز لا النشوة؟ وهل يمكن أن يقال إنها لا ينقصها شيء، وتعيش في تبات ونبات، لمجرد أن جدتي تؤمن بأن الأجيال القديمة أكثر رضا وقناعة؟

إنه يجلس علىٰ دكة بمفرده بأذنيه الكبيرتين، يجلس في حالة من الاكتفاء بالنفس، ببشرة تشبه لحاء شجرة عتيقة من غزارة التجاعيد، وبجواره مروحة صغيرة تتحرك ببطء، وكلما عادت إليه بهوائها المنعش مال عليها قليلًا وأغمض عينيه، باستنامة تشبه استنامة كلب عجوز أليف ليد صاحبه عندما يلعب في رقبته. وفكُّه مداوم علىٰ حركة عصبية لا تتوقف، ذكَّرني بفك الفتاة الحقود ماضغة اللبان، ولكنه أبطأ بالطبع من فكِّها.

إنه يحدق في المارين أمامه تحديقًا لا معنىٰ له غير تزجية الفراغ الطويل، من خلال نظارته الغليظة التي ضخمت عدستها عينيه، وأعطتهما منظرًا مخيفًا لعينين واسعتين مرهقتين، كأنهما

توبخان الحاضرين والعابرين. ورغم ما يثيره في النفس من تقدير وشجن، إلَّا أنه حرَّك لدي رغبة في الضحك؛ إذ كان يتحسس بيده شعره المتموج المصبوغ بصبغة حالكة السواد كلما مرَّ من أمامه رجل أصلع، كأنه لا يصدق أنه لا يزال يحتفظ بكل هذا الشعر الغزير بعد أن وصل للثمانينيات.

صرت أشغل نفسي عن البنت الغاضبة مني بالنظر إلىٰ المستشار، نبي الصدفة الذي صار عجوزًا، وإلىٰ الطريقة التي يراقب بها من حوله، كأنه أوشك أن ينسىٰ حقيقة ما يدور؛ لذا يضطر للضغط علىٰ ذهنه حتىٰ يقاوم أسوأ أعراض الشيخوخة، وكان ينظر كل حين لواجهات عمائرهم العتيقة التي تحتل هذا الجزء من الشارع، يتأمل في وجهها الذي غابت نضارة ألوانه مثله، كأنه يحفظ تاريخه وشبابه وأيام سعيه فيه، ومؤكد أن تلك العمارة العتيقة الباهتة اللون التي هام وهو ينظر إليها، والتي كانت أول ما شيدوا في الحي، كان لها اخضرار آخر في منتصف الستينيات، عندما تسلَّمها هو وأبوه وإخوته بوجه كان يومها مشرقًا.

ودارت عيناي، من اليمامة إلىٰ المطرب للمستشار، وأعود لأرمي نظرة خاطفة ناحية الفتاة الحقود، لعل أحد الشباب شغلها عني، فأجدها كما هي تنظر النظرات الخطرة نفسها، فأرجع لليمامة مرة أخرىٰ، التي ما زالت المرأة التي ترتدي زيًا كزي البحارة تكلمها، والتي عرفنا أنها أختها التي لم تذكرها جدتي، وما زالت

تبادل جدتي القدر نفسه من عدم المعرفة، ثم أعود للمطرب وهيامه وأوجاعه الشخصية، ثم أنتقل مرة أخرىٰ للمستشار الذي يحدق في واجهات العمائر.

وأخيرًا، انشغلت عنها بالنظر في كل هذا الصخب إلىٰ طفل متوارٍ بين أغصان الشجرة الوحيدة في الموقع، شجرة كثيفة الأوراق، مغسولة اليوم، وعلىٰ ساقها إضاءة خرطومية خضراء. لون الإضاءة الأخضر الغريب وحركة الضوء في الخرطوم الملتف حول الساق، بهما لطف وحزن وصلاة، كحركة وألوان الكائنات المجهرية التي تبدو وكأن انغماسها في الصغر يجعلها أقرب إلىٰ الله.

وجد هذا الطفل في الأعالي أفضل الحلول لرؤية بانورامية تسمح بمتابعة كل التفاصيل، وكذلك لتدخين السجائر خفية، وهو لا يكاد يُرىٰ ممن يحدق في الشجرة، أنا رصدته بالصدفة من خلال نظرة لا مبالية، وقعت بها علىٰ وجوده المستتر، حتىٰ ظننت أنه لا أحد يراه غيري، وأجتهد كي أحتفظ به خلف هذه الأوراق الكثيفة، بأن أدقق عندما أعاود النظر تجاهه لأستخلص وجوده المموَّه من الأغصان والأوراق، كأن عدم العثور عليه مرة أخرىٰ يصلح لإنكاره.

وفي مشهد غريب، خرج من أحد بيوت العائلة، طفل مترفع أرستقراطي الملامح، متورد الخدين، وعلىٰ وجهه نمش، وله

حاجبان بنيان خفيفان، وشعر بني ممشَّط علىٰ الجانب وملصق بالكريم، ويرتدي بذلة بلون بني فاتح ببنطال تحت الركبة بقليل، تحت سترتها قميص أبيض مشغول علىٰ الصدر، وبابيون لؤلؤي اللون علىٰ الرقبة علىٰ هيئة شريط، بالذوق نفسه الذي كان ساريًا منذ قرن وأكثر من قرن، كأنه تسلل من عصر الخديوية، خرج وخطف أبصار الجميع بهيئته وشعوره المفرط بالتميز والثقة، ويبدو أنه نتيجة زواج أحد الأثرياء الأفظاظ من أبناء هذه العائلة من امرأة من عائلة راقية، مهووسة بالأزياء وقادرة علىٰ كسر السائد، فجاء هذا الطفل تجسيدًا مشرقًا لهذه الزيجة وللنزعة إلىٰ الكبرياء.

اتجه الطفل إلىٰ الجد المستشار بخطوات رصينة، كأنه يشعر بأن الأبصار عليه، وأنه يجب أن يمشي بطريقة تليق بأمير، وقبَّل الجد الجالس علىٰ الدكة، واحتفىٰ به الجد وأولاه قدرًا عاليًا من الاهتمام. ويبدو أنه أراد أنْ يحتفظ به بجانبه، إلَّا أن الطفل الواثق شعر بالملل بعد قليل بعد أن أدىٰ واجبه، واستأذن منه بلطف وكياسة، وتحرك بعيدًا عنه وهو لا ينظر إلىٰ أحد كأنه لا يرىٰ أحدًا، ثم أشار بإصبعه لرجل يبدو أنه من عمال العائلة بغير أن ينظر في عين الرجل، فهرول الرجل إليه وانحنىٰ ليسمعه، ثم أعطاه البندقية القصيرة بغير أي لجاجة.

في تلك اللحظة نظرتُ إلىٰ الجد، ورأيته منفعلًا في مجلسه ينادي بصوت لم يسمعه الطفل، حتىٰ يمنعه من استخدام السلاح

وهو في هذا العمر الصغير. كان الرجل يشير بيده كأنما يشير لأوهام لا يراها أحد. أظن أنه كان غير متأكد مما يرىٰ؛ لذا كان يحاول أن يشير بطريقة غير واضحة وغير حاسمة. إنه لم يكن واثقًا من نفسه، فحاول منع الأمر بهذا الأداء الباهت، حتىٰ إذا ما لم يكن هناك شيء مما يرىٰ، لا يتهمه أحد بالخرف.

نظر الطفل حوله في كل ناحية بكبرياء طفولية ظريفة، واختار أن يرفع سلاحه تجاه الشجرة الوحيدة التي من خلفها الفراغ والبدر، والتي كان الضوء الأخضر حول جذعها في صلاة حزينة. كان هذا مباغتًا لي، لدرجة أني اكتفيت بابتلاع ريقي، وقد كان المطرب يتأوَّه، عندما كان الطفل يضبط تصويبه، وقد كانت اليمامة ترسل نظرة كأنها من عالم الموتىٰ، عندما كان الطفل يضغط علىٰ الزناد ويطلق الطلقة الأولىٰ، لتُسقِط علىٰ الفور غصنًا صغيرًا، ليضربوا له السلام علىٰ المسرح، وتنطلق الزغاريد والصفارات؛ وأشعر أني في حلم بغيض شديد السرعة، وأفقد القدرة علىٰ أن أوضح الخطر بشكل عاجل، وعلىٰ أن أقاوم المزاج العام الذي لا يسمح بإيقاف هذا الكابوس، وكل ما استطعت عمله هو أني نهضت من الكرسي، ووضعت يدي علىٰ فمي، فيما كان الطفل الأرستقراطي بعد ثوانٍ قليلة من طلقته الأولىٰ، يضرب الثانية؛ ليشعر الحاضرون باضطراب في جوف الشجرة، كأنها امرأة في

الطلق، ثم انزلق منها الطفل في دمائه وبكائه كما ينزل الوليد إلىٰ ضيق الحياة.

لقد ارتطم الطفل بالأرض، وتكوَّم في منظر مأساوي، أما القناص الصغير فوقف مذهولًا قليلًا، ثم وضع البندقية علىٰ الأرض بيديه بهدوء كأنه يتبرأ من فِعلتها، ووسط تأييد من حوله، فرَّ إلىٰ البيت بغير أي كبرياء؛ وحدثت بلبلة شديدة بين الحاضرين جميعًا، وتجمهر الناس حول الطفل المضرج بالدماء، وأخذوا يقلبونه بين أيديهم بعصبية، وصاح بعضهم أن الطلقة قد أصابته تحت الكتف؛ وقد يكون معنىٰ هذا في مجتمع كمجتمعنا أنه أصيب في الصدر، وضاق صدر جدتي من الصدمة، ولم تصبر حتىٰ أرافقها، واختارت أن تنسحب بعيدًا وحدها وهي ترتعش من الخوف، وأخذتْ تجرُّ كرسيًا وجلست عند حائط. غلبني الدوار وأنا أقف خلف المتزاحمين عليه، وأحسست فعلًا وقتها بأني في كابوس، كابوس مضاء بالمصابيح، وبه الطنين الذي يتبقىٰ في ذيل الصخب؛ صارت وجوه الناس غريبة فجأة، صارت مشئومة، ومن بين وجوههم تبيَّنت في لقطات سريعة مخطوفة في الزحام ملامح الطفل الخلاسي(١) الذي غرق قميصه في الدم، بعينه ذات اللون العسلي الفاتح، والبشرة الآسرة بسمرتها الخفيفة، وشفته الداكنة المتدلية، عندما كان ينادي في ذهوله وجرحه علىٰ أمه بصوت خافت.

---

(١) من وُلِدَ بين أبوين أبيض وأسود.

فور أن خطر لي أن هذا وجه طفل تخلَّط من زوجين مختلفين عرقيًا تمامًا، جاءني التفسير مباشرة، إلىٰ الزحام الذي حوله، إذ جاء أبوه ناصع البياض يعرج، بشعره الأشقر، ونحافته الشديدة، وثوبه الأبيض البسيط الضيق، والقطعة الكاوتشوك الملفوفة حول قدمه المعوجة للداخل. كان مجيئه وهو يمر بجانب عيني كالخيال، كالكائنات الخفيفة والمخيفة في الأحلام، فمن فرط نحافته واهتزازه، كان يتحرك مثل وسادة طويلة عليها غطاؤها القطني الأبيض، دبت فيها الروح في هذه الأزمة، حتىٰ ظهر أمامي كرجل أعرج هزيل ممتقع الوجه، من النوع الذي يظن من يراه أن بقاءه علىٰ الحياة إلىٰ هذا العمر كان فلتة، وأن أي أيام عاشها من بعد الفطام كانت مربحًا. يمضىٰ بمشيته التي تهز عوده المضطرب، وأمامه زوجته السوداء ذات الوجه النحيف الصارم الغضوب، وشفتها التي بلون الوشم.

كان يبدو عليه قلة الحيلة والخوف، كأنهم سيحاسبونه علىٰ اختفاء ابنه في الشجرة، وهو يرجو أن يغفروا له هذه الخطية، أما المرأة فكانت فهدة سوداء تكاد تنفجر من الغيظ، وتضرب تراب الأرض بحذائها تعبيرًا عن الاحتجاج، حتىٰ إن امرأة وضعت يدها علىٰ فمها حتىٰ لا تتفوه بشيء في حق العائلة الكبيرة، فيما كان طبيب من الجيران قد استدعوه من بيته بملابسه الرياضية لإسعاف الطفل، وكان يرجو الناس أن يفسحوا له حتىٰ يستطيع أن يفعل أي شيء.

وبينما كنتُ مغمورة بمتابعة ما يدور حولي حتىٰ نسيت جدتي، التي تركتني وجلستْ بعيدًا علىٰ كرسي وهي تتنفس بصعوبة وتهوِّي أمام وجهها بكفها، لكزتني ذات الفستان الفيروزي في جنبي لكزة قوية آلمتني وهي تقول: (إوعي كده)، وأكملتْ بصوت منخفض، ولكني عرفت ما تقول من حركة شفتيها وبغير أي لبس، فقد لعنت موتَىٰ أمي، فانهارت أعصابي من الصدمة، وجف حلقي.

كنتُ أشعر بأن ها هي الخيالات السيئة تتحقق بسهولة، كأنما كانت الفتاة تعرف أن الفرصة ستسنح لها، وأن ورق الكريب سيكون تحت الأقدام. فكرتُ في رد الإهانة بشكل عفوي، ولكني جبنت، جبنت جدًّا؛ فعندما صرنا وجهًا لوجه ونطقتْ البنت بما نطقت، بدت لي تافهة، بدت لي كفتاة صغيرة في السن عني، وجسمها الفائر يسبق سنها وعقلها، والهرمونات الزائدة تفعل فعلها في مزاجها؛ إنها تافهة، تستطيع أن تفعل أي شيء في وقت الغضب، وقد تندفع برعونتها وتصفعني، وهذا ما لن أنساه طيلة عمري؛ لذا لم أستطع أن أرفع يدي ناحيتها للتعبير حتىٰ عن الاحتجاج.

كانت يداي خائرتين تمامًا علىٰ جانبيَّ، ونبضي كأنه يكاد يتوقف، وأخذت عيناي تتبللان بالدمع، وازددت شعورًا بأني علىٰ وشك السقوط، وأشكر الرب علىٰ أنه لم يلحظ أحد ما حصل، فيربت علىٰ ظهري ليواسيني، لكنتُ انفجرت في البكاء. من دون

أي تفكير عرفت في لحظة أن ابتلاع الإهانة هو المتاح وحده لي كي أقطع علىٰ الكابوس شبقه للاكتمال. عرفت في لحظة أن الكرامة هي التي ستجعل الأمور تنتهي بأن تعضني الفتاة كما تخيلتُ، وتوقعني أرضًا وتركب فوقي وتقطِّع خصلات شعري، إلىٰ أن تتطوع السيدات العفيَّات بانتشالي من تحتها بدموعي وثوبي الذي علاه التراب؛ فأذهب بانكساري وشعري الذي يغطي وجهي لجدتي فأفجعها، ونذهب من هنا محطمتين، ومن خلفنا عائلة كبيرة استضافتنا وانشغلت عن كبريائي الجريح بحدث أهم.

وبعد أن بلعت الإهانة، وجف الدمع القليل في مكانه، وكانت أنفاسي غير مكتملة، كأنفاس أي إنسان لم يأخذ حقه، نظرتُ إلىٰ جدتي الجالسة في هدوء؛ لأعرف إن كانت قد عاينت ما حصل لي ولاحظت اللكزة، وشعرت أنها لم تكن قد لاحظتْ ما حدث في تلك الثواني القليلة من الإذلال؛ فارتحت لذلك بالطبع؛ فالإذلال إذا انقسم علىٰ اثنين ضوعف.

ثوانٍ أخرىٰ بعد اللكزة، حتىٰ غلبني الدوار تمامًا، رغم ظني عندما جف الدمع بسرعة أني امتصصت الصدمة، وتمايل جسمي بالفعل، وأخذت أستسلم للوقوع وأنا فقط حزينة، لم يكن بي من الوعي بنفسي غير أني إنسانة حزينة، ومن حسن الحظ أن هناك مَنْ كانت تلحظني، فطوقتني من خصري، ثم سندتني، ومضت بي إلىٰ جدتي برفق، وهي تقويني وتطمئنني وتربِّت عليَّ. خشيتْ عليَّ

جدتي عندما رأتني بهذه الحالة، وانشغلتْ بي عن نفسها، وقلت لها بصوت خفيض نادم: إن هذه آخر مرة ألبي فيها دعوة لحفل عرس في الشارع، فها هي الليالي تثبت مرة أخرىٰ أن تشاؤمي في محله.

ساروا بنا تجاه بيت من بيوتهم؛ من سوء حالتي لم أكن متأكدة أنه البيت الأخضر الباهت القديم، الذي كان المستشار يتأمل فيه، فقد تعطل شعوري بالاتجاهات. وقفت عند الباب قليلًا، وأنا أرمي بصري خلفي في حالة عارمة من الألم والضيق، وكل شيء مشوش، وكلام الناس مثل همهمة أشباح، تحت تأثير هذا الدوار الذي يغمرني ويلعب بالأرض من تحتي من إحساسي بأن كرامتي قد انجرحت، وأني اضطررت لابتلاع المهانة ولم أرد ولو بكلمة؛ ومن إحساسي قبل ذلك بالذنب؛ لأنني ربما أكون الوحيدة التي شاهدت ذلك الطفل يكمن في الشجرة، ولم أتصرف بسرعة لإنقاذه.

وأنا تمامًا مثل المستشار الذي أشفقت عليه عندما فقد الثقة في وعيه، وخاف من أن يكون الخرف قد جعله يظن أن الولد يحمل بندقية؛ إذ لم يمر شيء من الوقت علىٰ شفقتي عليه حتىٰ كنت مثله، وفقدت الثقة بوعيي، ولكن خوفًا من الحشد؛ خفت أن يكون هناك احتمال صغير جدًا أن الطفل مجرد وهم. مجرد التفكير في الاعتراض أمام كل هذا العدد من الناس جعل شيئًا فيَّ يقول لي

في أقل من ثانية: إنه قد لا يكون هناك يا ماري، أي ولد يدخن السجائر في الشجرة. قد تقومين وتصيحين بعصبية، ثم تدققين عندما تعاودين النظر تجاهه، وتفشلين هذه المرة في استخلاص وجوده أمام الناس، ويتحول طفلك الذي يراقب الفرح إلىٰ ورق شجر وظلال، وإلىٰ صدمة عدم العثور، فتتهمك عيونهم بالجنون، وتنسحبين من الفرح مخزية؛ طالما أنك في مواجهة الجماعة يا ماري، يستحسن أن ترتابي فيما ترين.

عندما كنت أصعد علىٰ السلالم العريضة التي بلاها الزمن -بهذا الاضطراب في الأفكار- وأنا أسمع الوقع الحزين للأقدام، والهفيف المخيف لتيار الهواء الداخل من النافذة المستديرة المطلة علىٰ السلالم، جاءني هاجس أن القدر ربما استدرجنا من الشارع المفتوح إلىٰ الضِيق، لعل هناك فصلًا مأساويًا آخر سيبدأ، لعل مجد هذه العائلة الطويل لم يشأ أن ينهار إلّا ونحن في عقر دارها؛ فتتفتَّح ضغائن الناس القديمة ضدهم، بوحي من دم ذلك الصبي الخلاسي إن أعلنوا موته في الدقائق القادمة، وتتعرض بيوتهم إثر ذلك للاقتحام، ولا نجد وسيلة لهذا الباب الذي دخلنا منه. كان يغلب عليَّ الشعور وقتها وأنا أصعد السلالم مع خطواتنا الثقيلة بفعل شيخوختها ودواري، بأن الانهيار سهل وهازئ، فقط هو ينتظر أشخاصًا معينين، مثلنا، حتىٰ يضعهم في ركامه.

صعدوا بنا للطابق الأول، وأدخلونا شقة واسعة مرتفعة السقف، ذات أثاث من طراز عتيق، وبها صورة كبيرة بالفسيفساء، جميلة ومؤثرة، عرفت من جدتي أنها لفقيد العائلة اللواء (ع)، الأخ الأكبر للمستشار وعميد العائلة بعد وفاة أبيه، بزيه العسكري ورتبته، الذي تؤكد جدتي أنه كان رجلًا قوي الشخصية جدًّا، وكانت زوجته ابنة عمه في قمة الحب والطاعة والإيمان به، وعاش حياته كلها ولم تجعله ينادي عليها مرتين في شأن واحد؛ ففطنا إلىٰ أننا في شقة الراحل التي لا أحد بها علىٰ ما يبدو.

وتركوا لنا خادمة سمراء شديدة النحافة لتهتم بنا، ترتدي فستانًا مناسبًا نوعًا ما للفرح الذي يبدو أنها كانت تحضره، وإن كان أكبر منها بمقاسين، ومتعطرة بمعطر الجو الذي يفوح في المكان. من الصعب علىٰ مَنْ لا يعرفها أن يحدد عمرها؛ يمكن أن يعتقد مَنْ يراها أنها دخلت سن المراهقة، ويمكن أن يعتقد أنها طفلة طويلة، ونبرتها لا تحسم الأمر، وعيناها الجاحظتان فيهما خليط من السذاجة والذكاء، لا أعرف كيف؟!

وتمددتْ جدتي علىٰ أريكة، وبدتْ أفضل، وإن كانت لا ترغب في أن تعتدل في جلستها، وقررتْ التمتع بالرقاد، وطلبت طفاية سجائر، فقدمتْ لها الخادمة النحيفة سريعة الحركة والالتفات طفاية السجائر وهي تعلن امتعاضها، وخطت خطوتين بفستانها الطويل وكعبها العالي، وهي تشعر بأنها سيدة أنيقة منشغلة، ثم

وقفت فجأة، والتفتت إلينا بطريقة بلهاء، وقالت بصوت عالٍ متحمس وهي تشير إلينا بالسبابة: إنها تذكرتنا الآن، فهي رأتنا من قبل، في فيلم فيديو. وابتسمتْ ومضت وهي تشعر بالحياء؛ لأننا لم نشجعها علىٰ الثرثرة، ولم نرفع الكلفة، ولم نظهر أي فضول لمعرفة أي فيديو هذا الذي تظن أننا ظهرنا به؟!

وأشعلت جدتي السيجارة اليومية الواحدة، التي بنكهة النعناع، التي تدخنها في تمام الساعة الثانية عشرة في منتصف الليل منذ أربع عشرة سنة، أما أنا فتحسنت كثيرًا بعد أن ألقيتُ نفسي علىٰ كرسي وخفضت رأسي بعض الوقت فذهب الدم فيه، ثم رفعته ووجدتني أندفع وأتمتم بسبٍّ تلك الفتاة نصف المجنونة، ذات النظرة الذئبية سبابًا قبيحًا، كأنها تقف أمامي وأرغب في تحطيمها نفسيًا، من أنتِ ومن أبوكِ ومن أجدادك؟! لعل لك جدة من جداتك العُلَىٰ، في شجرة العائلة الرخيصة، قد اضطرها الجوع الكافر مرة لبيع نفسها بثمرة يوسفي، فاعرفي قدرك. وانهزمتْ وهي تسمع مني ذلك، وابتلعت الإهانة وطأطأت رأسها وصمتت. وتخيلتها كذلك تزوجت من أحد مدمني البرشام العاطلين عن العمل من جيرانها في الحي؛ فكسر شوكتها وسمنتْ بفعل الندم، وتحولت إلىٰ كتلة من اللحم والشحم، تتحرك في الشارع بصعوبة بجلباب أسود لتشتري طلبات البيت، وها هي تجلس علىٰ أنبوبتها الفارغة عند مخزن الأنابيب من الصبح للظهر، بوجه لفحه الهم وأشعة

الشمس، وأنا أنزل زجاج السيارة المظللة، وأبتسم لها ابتسامة التشفي.

في الخيال، كان يرضيني أن أسحقها بالإهانة، أن تفتك بها الأيام حتىٰ تنسيها كيف كان يُرسَم عند مرآة (التسريحة) الكحل، وأن تغزو الدوالي سمانتيها حتىٰ تترحم علىٰ تلك الأيام التي كانت تضع فيها ساقًا علىٰ ساق، كان يرضيني أن تتعرض حياتها الطويلة للتدمير في جميع النواحي؛ حتىٰ لا يصدق أحد أن هذه الصورة التي تعلّقها في صالة بيتها، لفتاة بيضاء في الفستان الفيروزي، في فرح ما في ليلة ما، والتي يبدو فيها الفم صغيرًا جدًّا، هي صورة التقطت لها منذ سنوات قليلة. كل هذا تمنيتُه بعنف في خيالي، كرد علىٰ أنها أساءت لي بغير داعٍ. نعم، كانت العقوبات التي أنزلتها عليها أكبر كثيرًا من حجم الجرم، لكنها دفعتني لذلك. وشعرت وقتها أن أفضل اسم للأحكام شديدة القسوة هو أن نطلق عليها: (خيالية).

واتصلتُ بأخي بيتر، ولم أحكِ له شيئًا مما حدث؛ حتىٰ لا يشعر بالقلق. وقال: إنه سيأتي ليأخذنا بالسيارة بعد ساعة أو أكثر. أما جدتي التي ما زالت ترغب في الاستمرار في التمتع بالرقاد وهي تدخن، فغلبها الفضول بسبب بعض الأصوات القادمة من الشارع، فطلبت مني أن أطل علىٰ الأحداث حتىٰ النهاية وأنقلها لها. كانت ترغب في الوقوف علىٰ كل التفاصيل، وكانت

تستشعر أن للقصة فصولًا قادمة جديرة بالاهتمام، ولم يكن هذا شعوري.

ودخلتُ إلىٰ الشرفة الواسعة المطلة علىٰ حالة الفوضىٰ والتزاحم التي انكسرت كثيرًا، ونظرت إلىٰ أسفل، أسفل المصابيح التي انطفأت في عناقيدها المتقاطعة وصارت حزينة، وشعرت بالوجوم الذي سيطر علىٰ المكان، مع صفوف الكراسي الفارغة، والسكوت المبكِّر لضجيج المولد الكهربي، وخيبة الأمل التي تشعر بها القطط وهي تفتش علب الطعام ولا تجد إلَّا الفتات، والشكل الدائري الجميل من نشارة الخشب الملونة الذي بعثرته الأحذية حتىٰ لم يعد شيئًا. ورأيت الفتاة الكريهة هناك، ظهرها لي وهي تكلم بعض السيدات أسفل عمارة، وشعرتُ أني أكره جدًّا أن أراها حتىٰ ولو من ظهرها، وأكره أكثر أن تلتفت وتراني؛ لذا ما عدت قادرة علىٰ البقاء في الشرفة، بالإضافة إلىٰ ما خطر لي من أن أحدهم ربما يلهو الآن ببندقيته وهو لا يدري أنها مصوبة تجاهي. بدا لي القتل الخطأ في تلك اللحظة ميسورًا جدًّا، في يسر التفات تلك الفتاة؛ لذا أسرعت بالدخول.

دخلت أنظر من خلف النافذة بعد أن فتحتها قليلًا، وبعد أن أطفأت الإضاءة، حتىٰ لا يظهر ظلي للمتواجدين في الشارع، وأخذت أنقل علىٰ الفور لجدتي ما أشاهد، وأنا أحاول متابعة كل صغيرة وكبيرة من بين أخصاص النافذة.

صار المستشار متأكدًا مما حدث، صار متأكدًا من أن ما كان في يد الطفل بندقية، وها هو يقف بجوار سيارة من سيارات العائلة، مهمومًا ومسيطرًا رغم كل شيء، واليمامة تكلمه وهي تمسك يده وعلىٰ وجهها فخر شديد به. حملوا الطفل المصاب أخيرًا في تلك السيارة، وصعد المستشار أيضًا بعد أن تلفت حوله كجنرال يركب عربة حربية وهو يشعر بالعظمة والسيطرة. ووالدة الطفل السوداء، كان صوتها قد بُحَّ من الصراخ حتىٰ صار كالفحيح؛ وصارت وهي بهذه النظرات التي تجمع بين التوحش والشكوىٰ، وبهذا الفم المفتوح، كفهدة تتلفت حولها وهي تعاني من شيء علق في حلقها، ثم صعدتْ بجانب طفلها الذي يحتضنه الطبيب الذي لم ينجح في إنهاء كل شيء في الشارع من دون الحاجة إلىٰ الذهاب للمستشفىٰ، وركب كذلك الأب الأبيض الأعرج المغلوب علىٰ أمره، الذي تخلص من ارتباكه الأول وبدأ يبكي بهدوء، ويدرك مأساة ابنه بعيدًا عن خطئه في الاختباء في شجرة.

عندما بدأتُ أشعر بالملل من هدوء الأمر بالشارع، وأطفأتْ جدتي عقب سيجارتها الطويلة الوحيدة، وآمنتُ بأن القصة انتهت، وليس الأمر كما كانت جدتي تتوقع، وفكرت أن آخذها، وأمضي من قبل أن يأتي أخي بيتر، ولنعرف بعد ذلك ما جرىٰ علىٰ طفل الشجرة بأي وسيلة؛ فجأة وجدتُ رجلًا أربعينيًا باهت الوجه يمسك

به بعض الرجال من ثوبه، ويمضون به وهو في حالة من الصدمة والاستياء مِنْ ظلم مَنْ حوله، والكوفية التي يلفها علىٰ رأسه بطريقة غير محكمة وقعت منه. وبلهجة من يحاول التفاهم دون أن يفرط في اعتزازه بنفسه وهم يسرعون به الخطىٰ، كان يقول: إنه لم يفعل شيئًا، ويقول: إنهم يعرفون جيدًا أنه لم يفعل شيئًا، ويقول: إن الباشا (ل) سينصفه، مرددًا اسم المستشار، وكان يبدو عليه أنه شخص لم يعتد علىٰ الإهانة، ولا علىٰ التوسل ولا علىٰ الإنكار؛ لذا يحاول أن يحتفظ بكرامته، ويمنع نفسه عن أن يبذل قصارىٰ جهده في الإقناع أو الاستعطاف. وكان حزينًا جدًّا، ومندهشًا، ولكن كان مؤمنًا في الوقت ذاته بأن كل شيء سيتم تصحيحه بسرعة.

سبُّوه، وأمروه أن يخرس، وبدا هذا شديد الصعوبة علىٰ نفسه، وبدا وهو ينظر مصدومًا في وجوههم أنه يعرفهم رجلًا رجلًا، ولم يكن يتوقع منهم أن يجترئوا علىٰ معاملته هكذا. وظهر عليه أيضًا أنه يشعر بالحرج البالغ من المتواجدين في الشارع، فيما أخذوا يشيرون إلىٰ عربة شرطة جاءت من الناحية المقابلة، وركنتْ بالقرب من نافذتي، ونزل منها ضابط وعسكريان وتوجهوا لهم، وهو لا يزال يقول: إن الأمر سيمر علي خير، ولا داعي لكل هذه الإهانة، وإن سيده (ل) لن يجعله يبيت في الحجز. إلَّا أن كل هذا الكلام لم يكن له قيمة، وكأني أنا وحدي الذي أسمعه.

وعندما أبدىٰ جسده نوعًا من التمنع عن الصعود في سيارة الشرطة من الخلف، بسبب الجزع لا المكابرة، وهو يقول وقتئذ كأنه لا يدري ما يقول: (حرام هكذا)، تلقىٰ من الضابط صفعة علىٰ قفاه أصابته بالذهول، ثم ألقوه بصورة بائسة داخل عربة الشرطة، كما يلقىٰ حصان يحتضر في عربة البلدية، وقد استطعت أن أغتنم صورة لتلك اللحظة المأساوية. وأول ما وجد نفسه في العربة حقيقةً وليس خيالًا، وضع طرف جلبابه علىٰ وجهه من الغم، ثم رفع وجهه وقال بصوت رهيب موجع: يا رب. وقد ذبتُ في وجعه حتىٰ إني غفلتُ عن أن أجمِّد من خلال الفيديو تلك اللحظة الرهيبة وهو يرفع وجهه لأعلىٰ بالشكوىٰ المريرة، هذا منظر أطبق علىٰ عنقي وخنقه بالفعل، ولن أنساه أبدًا.

تحركت العربة مثقلة بوجيعته، يودعها أسفي من أجله، وخجلي من كوني لا أستطيع أن أفعل له شيئًا، وظل وجداني يهتز من ندائه المجلجل الذي لم يكرره، كثوب فضفاض يرتجف علىٰ حبل حزنك يا رجل. وغمرتْ جسدي كله قشعريرة رحت فيها؛ من وجع الشفقة عليك، ومن الوهن الذي تركته بي شدة حزنك علىٰ نفسك. ومن غير أن أدري سال دمعي علىٰ خدي، وعلىٰ النافذة التي سندت عليها وجهي، وأخذت أهز رأسي برفق ومسكنة رافضة ما رأيت، وبي صرخة تود أن تدوِّي، ولكن كُتب عليها أن تموت في أحشائي.

شكرتْ جدتي الرب علىٰ أنه لم يجعلها ترىٰ المنظر بنفسها؛ فهي لا تتحمل رؤية المظالم، وقالت وهي تعلق علىٰ ما أنقله لها بصوتي الحزين، نفس ما كنت أفكر فيه، بصوت ناضج ومهموم، وهو أن هذا الرجل المسكين سيتم التضحية به؛ ليحمل دم الطفل الذي ربما يموت بسبب جرحه الغائر. عندما صادق ظن جدتي ظني شردتُ، وسيطر عليَّ الشعور بالصدمة في المستشار عميد هذه العائلة، وقبل هذا رجل الحق والعدالة، في أن يدبر أمرًا كهذا، أو يباركه أو يسمع به ولا يمنعه، في أن يرضىٰ بحمل بريء لخطأ غيره. وقلت لجدتي: إنني أشعر بأن ما دار تحت النافذة يخص ذلك للأسف، وإننا قد ألقىٰ بنا الحظ معًا علىٰ ضفاف مؤامرة تجري من تحتنا.

وسكتنا، ونظرتُ إليها ونظرتْ إليَّ، واتفقنا بغير أي كلام علىٰ أننا نشعر الآن بالبغض لتواجدنا هنا، ونشعر ببعض القلق أيضًا، وسنقبع هنا بالهدوء وبالتغابي حتىٰ يحملنا بيتر من دون أن نبدو فضوليين يسألون عن أي شيء. وتمنيت أن يأتي وقت الانصراف بسرعة، وبغير أي أحداث أخرىٰ سيئة، وأن نفتح الباب وقتها ونغلقه من خلفنا، وننزل إلىٰ السيارة بغير أن يقابلنا أحد منهم في طريقنا؛ لأني حملت هم الابتسامات المتبادلة في الوداع قليلًا.

وشعرت بأن هناك شيئًا غير مفهوم إن كان الرجل كبش فداء كما حسبنا، ونقلت لجدتي ما يثير استغرابي، ولكن يا جدتي إن

كان من خدم العائلة المخلصين، واختاروه لتلك المهمة التي تحتاج إلىٰ رجل حاسم غير متردد؛ فالطبيعي أن يغروه ليكون كبشًا للفداء، للدرجة التي يفرح بها بالمغريات، ويخشىٰ حتىٰ أن يرجعوا في كلامهم في آخر لحظة ويستبدلوه بغيره؛ فلمَ يبدو عليه كل هذا الهمِّ، وأنه يُسَاقُ إلىٰ مصيره مجبرًا؟

سكتت جدتي قليلًا، حتىٰ ظننتُ أنها لن تعلق علىٰ سؤالي، ثم أخطأت خطأ مزلزلًا بالنسبة إلي، فبنفس الطريقة الهادئة والرصينة التي يتكلم بها الكبار عندما يريدون الإيحاء بالخبرة وغزارة المشاهدات، قالت بالفرنسية: إنك لا تعرفين شيئًا علىٰ الإطلاق يا صغيرتي ماري، ثم أكملت بالعربية: إن مَنْ يرتضي أن يكون كبشًا للفداء لا يكون في أحسن حالاته مثلما نتوقع.

وهالني هذا القول الغريب، ثم عرفت لماذا هالني ولماذا قالته جدتي؛ لم يكن هناك خبرة ومشاهدات في حياتها دفعتها لقول ما تقول علىٰ ما أظن، إنها فقط فَكَّرَتْ في السيد المسيح، وضبطتْ عليه ما يجب أن يكون عليه سلوك القربان الإنساني المثالي، وكذلك فكرتُ فيه أنا فور أن قالتْ ما قالتْ، فالمسيح لنا هو الفادي[1] من خطيئة آدم الذي تذوَّق من الشجرة التي أمره الرب أن

---

(١) أكل آدم من شجرة معرفة الخير والشر، التي حذره الرب من الأكل منها، وقال له: إنه موت يموت موتًا إن فعل: وقد وقع آدم وحواء في المحظور واستحقا الموت، وبمُجرَّد سقوط آدم وحواء صار الجنس البشري كله خاضعًا لهذا الحكم؛ وهو ما يعني تحول =

لا يأكل منها، هو الذي قبل بهذا الدور الجليل؛ لينجينا بمحبته من التهلكة، ومن كلفة الذنب القديم؛ ولكنه لم يكن في أحسن حالاته، كان يتضرع كي يفلت من قبضة أعدائه ولا يتمكنون منه، كأي بريء يوشك الأشرار أن يحيطوا به، بالإضافة إلىٰ أنه كان

= الطبيعة البشرية إلىٰ طبيعة فاسدة غير متفقة مع الصورة الإلهية التي كانت له عند خلقه، وهذا الفساد في الطبيعة يعني: موتًا روحيًا وجسديًا، وكذلك موتًا أدبيًا؛ حيث يتعرض الإنسان للتعب والنكد في حياته علىٰ الأرض، وكذلك اكتسب الجنس في الأرض القابلية للخطأ والفساد، وهذه كلها صور مؤسفة للموت الذي حَذَّرَ منه الرب آدم.
ولم يكن بالإمكان مسامحة آدم؛ لأن هذا يتعارض مع عدل الله، كما أن هذا يتعارض مع صدق ما توعَّد به الله وحذَّر، ولم يكن الغفران ينفع وحده؛ لأن آدم سيظل في طبيعة فاسدة بحاجة إلىٰ تجديد، ولم يكن من المناسب إماتة آدم؛ لأن هذا يتعارض مع رحمة الله.
لذا لم يكن هناك غير حل واحد فقط، وهو أن يفتدي الرب آدم، أي أن يموت آخر عن آدم، وأن يجدد الله طبيعة آدم مرة أخرىٰ، علىٰ أن تتوافر في الفادي شروط معينة: فلا بدَّ أن يكون إنسانًا؛ لأن الإنسان هو الذي أخطأ. ولا بدَّ للفادي أن يموت؛ لأن عقاب الخطية الموت. ولا بدَّ أن يكون الفادي بلا خطية؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه. ولا بدَّ أن يكون الفادي غير محدود؛ لأن آدم عصىٰ اللهَ غيرَ المحدودِ. ولا بدَّ أن يكون الفادي خالقًا، حتىٰ يُمكنه تجديد طبيعة الإنسان مرة أخرىٰ.
والحل الوحيد أن يكون الفادي هو الله ذاته؛ لأن كل الشروط تنطبق عليه هو وحده، غير شرط واحد وهو أن الله ليس إنسانًا، ولم يكن هناك غير أن يتخذ جسدًا إنسانيًا؛ فأخذ ابن الله -أي: المسيح- لنفسه جسدًا قابلًا للموت، بنزوله إلىٰ هذا العالم مولودًا من امرأة، وقدم هذا الجسد البشري للصليب ليرفع حكم الموت عن غيره؛ وبذا يقال: إن في آدم مات الجميع، وفي المسيح سيحيا الجميع؛ لأن كل نسل آدم كان يستحق الموت بصوره المتعددة بسبب الأكل من الشجرة.

يصرخ صرخة بائسة، ويسأل إلهه فوق الصليب لماذا تركه؟ كأنه لم يكن قد نزل في زمن من أزمنة الناس وتجسد إنسانًا فقط من أجل هذه الساعات الدموية التي سيكابدها لتخليص الإنسانية من خطيئة آدم.

خطيئة آدم التي وقعت عندما لم يكن هناك من العائلة غير أبينا آدم وزوجه حواء، التي شاء العليُّ -حسب إيماننا- أن تمر عليها تلك الخطيئة قرون وقرون وقرون، حتىٰ يأتي الفداء منها عندما يصل عدد أفراد عائلة آدم الأحياء فقط في فترة المسيح إلىٰ ٣٠٠ مليون إنسان.

السيد الذي ما صار في جسد إنسان إلَّا فقط من أجل هذا الخلاص للمليارات من الآدميين عبر العصور المختلفة والعصور القادمة، يسأل إلهه لماذا تخلىٰ عنه؟! بينما ذلك الرجل الذي مرَّ من تحت النافذة، والذي صار في جسد إنسان من أجل أشياء كثيرة بسيطة ومكررة في عالم البشر وغير جديرة بالتأريخ، ولم يكن يخطط منذ نصف ساعة لخلاص أحد، لم يقل مثل ذلك عن المستشار الذي بانت عليه مشاكل الشيخوخة، وظن للنهاية أن سيده سينجيه.

أرسلت في الظلام صورة الرجل وهو يُلْقَىٰ في العربة لجروب الأصدقاء علىٰ الفيس بوك، مع شرح مبسط لما حدث في فرح حضرتُه أنا وجدتي في منطقة (...)، ومع توسل بألَّا ينشروا

الحدث خارج الجروب؛ حتىٰ لا نوضع في موقف حرج مع أصحاب الفرح، الذين سيعرفون من زاوية التصوير مَنْ فعلها، وأكدت لهم أننا ما زلنا هناك، وأنني مستاءة جدًّا.

نظرت إلىٰ وجه جدتي، وخفت أن تنعس وتتركني للملل، فقلت لها: حسنًا، وإذا ما كان هؤلاء الأجلاف، الذين كانوا يمسكون زميلهم يعرفون جيدًا أنه بريء تبرع بنفسه تحت تأثير ما لا يستطيع مقاومته من مشاعر الولاء ومن العروض السخية، ويعرفون جيدًا أن كل من حضروا الحفل، الصغير قبل الكبير، متيقنون من براءة هذا الرجل، بِمَنْ فيهم هؤلاء الذين ما زالوا في الشارع وشاهدوا الأمر من دون أي تدخل، فلماذا يهينونه ويمثلون الغيظ منه؛ فيظهرون في أعين الناس كمجموعة منحطة من المهرجين السفلة الكذبة، الذين لن يتمكنوا من إقناع أحد؟ لماذا لا يسحبونه بهدوء إلىٰ عربة الشرطة؟

ردَّت جدتي علىٰ سؤالي: إن هذا قد يكون لحبك الأمر أمام الضابط. ثم نظرتْ للحائط وكررت كلامها وهي تهز رأسها، كأنها تفحص مدىٰ معقولية ردها، ثم سكتت قليلًا، وهو ما يعني غالبًا أنها ستحاول أن تقول شيئًا له وقع خاص، ومن بعدها أكملتْ: وغير الضابط؛ الناس يا ماري، الشهود، كل هؤلاء الذين رأوا الأحداث معًا، لهم أهمية كبرىٰ؛ ولعل الأداء الصارم يصلح معهم، ويساعدهم علىٰ بلع الألسنة، بل قد يهز ثقتهم فيما يعرفون.

إن القبض علىٰ الرجل الذي لم يطلق الرصاص، بدلًا من الطفل الذي فعلها أمام المئات، شيء بالطبع لا ينطلي علىٰ أحد علىٰ الإطلاق، وعمل شيء لا ينطلي علىٰ أحد مثل هذا يحتاج إلىٰ أداء غير مهلهل.

لا شك أنها نجحت في قول شيء له وقع خاص بطريقة بسيطة، وشردتُ في كلامها؛ حتىٰ ذهب بي بعيدًا، إلىٰ أبعد مما ذهبتْ، إلىٰ أبعد من قدرة الشدَّة علىٰ زلزلة الذين يرون الضحية، تلك الزلزلة التي تصل إلىٰ درجة الإقناع، ذهب بي كلامها إلىٰ قدرة الشدة علىٰ زلزلة الضحية نفسه، وإلىٰ أن الإهانة وربما الضرب، والمغاضبة الشديدة في وجه الفادي، تساعده علىٰ الانخراط في الورطة، وتعينه علىٰ الشعور بالشيء الكثير من الإثم، ويتحول بها الأمر من طقس تعبيري، إلىٰ مشهد مؤلم من مشاهد الحياة طاعن في البؤس والواقعية.

ينخرط الفادي إذن في العناء بكل ما عنده، بغير أن يدخِّر قوة للانسحاب من الحالة، بغير أن يصون نفسه من أعراض الكآبة، ويكون وفيًا تمامًا لكارثته، مخلصًا حقًا في انخراطه، لا لكي يحمل العقوبة وحدها عن غيره؛ بل ليحمل معها الشعور بالمرارة والندم. ولا شيء يمكنه أن يساعده علىٰ استبطان هذه المشاعر قدر أن يتعرض للتوبيخ والاستهزاء والإيلام، وأن يرىٰ في أعين الذين ينكِّلون به غيظًا حقيقيًا أفقدهم رشدهم.

هل يمكن إذن أن تكون العائلة التي لديها خبرة متوارثة في التسيُّد والتأثير في مَنْ يعملون ضمن ممتلكاتها، قد انتقت ذلك الرجل من بين عمالها كنموذج للرجل الضعيف القابل للإيهام، وأوقعته تحت تأثير مدروس للشدة والضغوط من عدة أشخاص مهيبين من العائلة في وقت واحد؛ حتىٰ صدَّقَ، وبشكل مؤقت، أنه المذنب، وأنه هو الذي أسقط الطفل مضرجًا في دمائه، ويكون ما قاله عندما أسال دموعي قد قاله في لحظة التوهج عندما انخرط تمامًا في دور المذنب، المذنب الذي لا يفعل في الحقيقة شيئًا آخر غير ما يفعله البريء وهو الإنكار والتنصل؟

وهل عندما قال المسيح قولته: (إلهي إلهي لماذا تركتني؟) كان في ذروة انخراطه ووفائه لكارثته، حتىٰ حلَّ من شدة الوفاء في آدم أو حلَّ آدم فيه، حتىٰ جرىٰ علىٰ لسانه أمام الناس ما كان سينطق به أبونا آدم وهو ذاهب في أيدي الملائكة عندما تجب عليه العقوبة؟

مَنْ يدري؟ لعل هذه الفرضية الجديدة المُتكلَّفة التي أفترضها هي الحقيقة رغم غرابتها، يا ليتها تكون الحقيقة! حتىٰ أرضىٰ بها تمامًا، وأخفي فيها عجزي المستديم عن الجمع بين أن أتفهَّم شعور المسيح في تلك اللحظات البشعة بالغبنْ والتراجع، وأن أتفهَّم في الوقت ذاته ألوهيته وسرمدية فدائه.

اتسع تفاعل وتعاطف المسيحيين أصدقائي في الجروب مع الصورة والتعليق، أكثر مما توقعت. وبنظرتي السريعة في التعليقات، والوجوه التعبيرية، وإعلانات المحبة، وقبلات الفتيات التي تأتي في محلها وفي غير محلها، توسَّمت أنه لا أحد من الأصدقاء مثلي قد ذهبت به الحادثة إلىٰ قصة الفداء، وكنت كأغلب من يقعون في الطريق، أتمنىٰ أن يقع غيري في النقطة نفسها؛ لدرجة أني فكَّرت في أن أضع تلميحًا يقود بعضهم إلىٰ العرقلة، يذكِّرهم بالمسيح مقتادًا بالطريق إلىٰ الصلب، ولكني شعرت أن هذا قد يحدث بلبلة في التعليقات علىٰ المنشور الناجح البسيط، الذي ظهر كسبق صحفي ليس بحاجة إلىٰ تأملات.

وتسألني جدتي التي تقلب عينيها في أرجاء المكان مقاومةً أشباح النوم التي ترفرف حولها بالأجنحة، بالبحث عن حديث مثير: هل من جديد؟ فنفيت. ويبدو أنها كانت تشعر بالطرب وهي تنسحب إلىٰ النوم تجاه فكرتها، فكررتها مرة أخرىٰ بغير أي داعٍ، وبالفرنسية مرة أخرىٰ: لا تمضي القرابين إلىٰ الهلاك إلَّا بخطًىٰ وجلة.

يا ليتها نامت قبل أن تقولها، هاهي ذي جدتي تجرني ثانيةً إلىٰ قصة السيد المسيح؛ فأول ما شعرت به بعد أن ظننت أن الرجل سيحمل الدم هو الصدمة؛ الصدمة في المستشار رجل الحق والعدالة، وعندما تجبرني جدتي علىٰ أن أذهب بذهني إلىٰ ما حدث

مع المسيح، تضعني في مواجهة نفسية مع استيعاب عدالة السماء ورحمتها في ضوء القصة العزيزة للفداء، فإذا ما كان يحزنني أن يدبر المستشار أمرًا كهذا؛ فكيف لا يحزنني أن يقوم إيماني كله علىٰ أمر مثله؟!

وإنه لمن الصعب عليَّ فعلًا أن أشعر بالارتياح التام، وأنا أؤمن بأن الله هو الذي كان يلهم الشعوب في أزمنة مختلفة سن قوانين ينشدون بها تحقيق العدالة، وهو الذي وضع في قلوب الناس حمية وغيظًا لتعقب الجناة الحقيقيين، وأظل أجمع إلىٰ ذلك إيمانًا بأنه اتخذ كل التدابير المنسوبة إليه في قصة التجسد والصلب والفداء كحكم وجيه علىٰ خطيئة آدم الذي أكل من الشجرة، فيقبل بابنه المسيح ذبيحة كاملة تليق به، ويقبل الابن بدوره أن يتخذ شخصية إنسانية؛ ليخرج من صفوف البشرية متحملًا عنها تبعة الذنب الأول الذي لم يذنبه هو، وهي أيضًا (البشرية) لم تذنبه؛ فتتحقق الرحمة الإلهية بصلبه، ويرفع الرب أخيرًا حجاب رضاه عن البشر، كأن هابيل لم يستطع نيل هذا الرضا الإلهي منذ أزمنة سحيقة بغير تعليق أحد بالصليب، وكأن يوحنا لم يستطع نيل هذا الرضا قبل حادثة الصلب بوقت قليل!

وإنه لمن الصعب عليَّ فعلًا أن أشعر بالارتياح التام وأنا أؤمن بأن بالله أوجد فارقًا عظيمًا بين هابيل وقاتله، وبين يوحنا المعمدان وقاتله، وأنه يرفع الأخيار في درجاته قبل الدهور، وأظل أجمع إلىٰ

ذلك إيمانًا بأنه حكمَ بتأثيم الجنس البشري كله بما فعله أبو الجنس البشري آدم؛ وهو ما يعني فساد طبيعة القاتل والمقتول علىٰ حد سواء، فيكون الصراع الذي جمعهما كصراع الوحوش في الغابة بلا أي قيمة.

أنا غير قادرة علىٰ التوقف عن الشعور بأن الحكم بتأثيم الجنس البشري كله ضد البداهة، وضد الكتاب الذي يعلم الناس أن الابن لا يحمل إثم أبيه؛ أنا حزينة لكوني أشعر بذلك، ولكني أشعر بذلك. ربما يمكنني فهمه كنوع من التوبيخ الشديد، كنوع من التعبير عن حنق هائل، وليس حكمًا بالمعنىٰ الحرفي للكلمة؛ فهو يشبه، إلىٰ حد ما، بطشي الذي لم يقع علىٰ الفتاة السفيهة التي امتدت يدها إليَّ وشتمتني، وعقوباتي المتتابعة التي لم تنزل عليها؛ إنه أيضًا مبالغ فيه، وغير مناسب لإثم آدم علىٰ الإطلاق، للدرجة التي تسمح بأن يقال عنه: إنه (خيالي).

خلال هذا الوقت الذي قضيناه منتظرتين وصول بيتر، منسيتين تمامًا، وقد كنا راضيتين بذلك، ونفضل أن نكون بمفردنا، فتحتُ النافذة عن آخرها، ووقفت جدتي بجانبي قليلًا، في آخر محاولة شريفة لها للهروب من النوم عند الناس. تنسمنا الهواء، وشاهدت فتاة الفيروز تودع النسوة الواقفات عند بيت، وتذهب إلىٰ حال سبيلها، وتخلصتُ من إحساسي بأن هناك أحدًا يلهو ببندقية، وتثاءبت جدتي من أثر النسمة، وتذكرتُ وقتها أن زوجة المستشار

التي حيتها من بعيد وأرسلت إليها قبلة، لم تأتِ إلىٰ طاولتنا كما وعدتْ.

كان الوضع يزداد هدوءًا في الشارع شيئًا فشيئًا، كأي شارع، حيث يقبل السكان الأشياء المزعجة وينصرفون عنها لشئونهم، وعلىٰ العكس من ذلك كان الأمر في الجروب، كان الوضع يزداد سخونة، ويزداد الأسىٰ بفعل العدوىٰ. ولا شك عندي في أن الصبي المصاب هو هاجس الشارع الأول، أما في الجروب فأغلب اهتمامه بالرجل الذي قُبِض عليه، وليس بالطفل المعرض للموت؛ ذلك لأني التقطت صورة للرجل ولم ألتقط صورة للصبي.

وقد أرسل لي أخي رسالة بأنه سيحاول أن يأتي لنا معه بالأخبار، فقد قرأ المنشور وشاهد الصورة، وهو سعيد بالرواج الذي لاقاه، وسيحاول أن يساعدني علىٰ أن أقدم لأصدقائي ما يستجد من أحداث؛ فلديه صديق في الشارع نفسه، وهذا الصديق الآن في المستشفىٰ عند الطفل يتابع التطورات، وقد اتفقا علىٰ لقاء سريع علىٰ مقهىٰ علىٰ أول الشارع لمعرفة التفاصيل.

بعد أن لم يعد هناك ما يستحق المشاهدة، جلستُ بجانب جدتي علىٰ الكنبة في انتظار مجيء أخي، مرتاحة للصمت، واكتشفت بعد قليل أنها، في هذا السكون الممتد، والضوء الخافت، وخلال تيار النسيم القادم من النافذة المشرعة، وتحت تأثير الهدوء الذي يأتي بعد الضجيج، قد ذهبتْ من دون أن أدري متىٰ ذهبت في النوم!

وفي أثناء خمولي الذي يبدو وكأنه يمهد لأن أنعس بجانبها إلىٰ أن يتصل أخي علىٰ الجوال، وأنا أنظر في الصالة ناحية صورة الفسيفساء، التي تنعم بالقليل من الضوء الذي يناسب صور الموتىٰ، سمعت الباب يُفتح ليدخل المستشار وهو ينظر أمامه إلىٰ لا شيء، ثم تخطىٰ الصورة ووقف وهو لا يزال لا يراني ولا يرىٰ جدتي النائمة بجواري، وطار النعاس من عيني وبلعت ريقي؛ لأنه بدأ يفك سرواله. وفجأة وجدت سرواله علىٰ الأرض مكومًا حول قدميه، وظهرت رجلاه أكثر بياضًا من بشرته، وأنحف كذلك مما يوحي به نصفه العلوي، وملساوين تمامًا، وعلىٰ الفخذ وحمة في حجم بلحة. وخلَّص قدميه من السروال ووقف شاردًا قليلًا، بنصف علوي لرجل عجوز متمرس ومكابر، ونصف سفلي لطفل طيب مغلوب علىٰ أمره مرَّ من عمره ثمانون عامًا.

وخفت من أن ينظر عن يساره ويراني، وفكَّرت أن أوقظ جدتي لتشاركني هذا الموقف الحرج، ولكني اخترت أن أمثل النوم، وكلي أمل بأن الخادمة ستأتي في أي لحظة وتنبهه لوجود ضيفتين نائمتين، إحداهما صديقة قديمة تشاركه حب الفرنسية.

وما إن أغلقت عيني حتىٰ قال وهو يكلم نفسه بصوت مختلج ولكنه واضح، وعالٍ، وبنبرة فيها عقم مرير: يا ناسية أفضالي العظيمة؛ فاستيقظت جدتي خفيفة النوم، كما لو كان ينادي عليها هي، وذعرتْ من منظر صديقها بغير سروال، ونظرت لي تستفسر

فمططت لها شفتي معلنة تعجبي مثلها! أما هو فأكمل كلامه وهو يخطو خطوة ضيقة جدًّا للأمام، ثم يقف ويستمر في كلامه، كأنه مجبر علىٰ أن يعود لمحبسه: يا ناسية أفضالي العظيمة؛ أنا الذي صنعتك، صنعت حتىٰ حساسيتك ورقتك، وعدم قدرتك علىٰ تحمل الإساءة، وقد كنتِ تتحملين من قبلي، أنا الذي ساعدتك علىٰ أن يكون لك ذوق خاص، تحبين وتكرهين جدًّا، تقبلين وترفضين بشدة، وقد كنت من قبلي تعيشين ساذجة فقيرة في دنيا محدودة، بغير أي حكم علىٰ أشياء كثيرة من حولك، بل حتىٰ غير قادرة علىٰ الحكم علىٰ أشياء تخصك وتخص حياتك، وإني أذكرك وأنتِ عروس خفيفة الروح سعيدة في شهر العسل، عندما سألتِني عن أي إيشارب من الإيشاربات الكثيرة التي اشتريتها لك تماشيًا مع الموضة يمكنك أن تلفيه حول عنقك ويليق بقميصك؛ لأنك محتارة منذ نصف ساعة وغير قادرة علىٰ التفضيل بمفردك، فاخترت لك، ولففت الإيشارب المنسجم حول عنقك بيديَّ، برقة أب حنون وأنا أبتسم؛ فقد كنت أنا وقتها أحكم بلف حبل الشنق حول رقبة إنسان بغير أي حيرة وتردد.

أكمل هذا الكلام وهو متوارٍ عنا خلف الحائط متجهًا لغرفته، وظهرت الخادمة الصغيرة، والتقطت سرواله ببساطة ووضعته علىٰ كتفها، وأشارت لنا لنطمئن، وذهبتْ من خلفه بتماسك كأن هذا تصرف قد اعتادت علىٰ مثله. مطت جدتي شفتها السفلىٰ من الأسىٰ

وعبرت لي عن خوفها؛ فهي تريد أن تموت وهي بحالة جيدة، وليس هكذا. وأخذت تهز رأسها من الرفض، فربَّتُ عليها؛ فبكت من الإحساس بالشفقة علىٰ رجل كانت تراه في حال أفضل من هذه الحال.

ورجعت الخادمة ولا تزال ترفل في فستانها الطويل واثقة بنفسها، وقالت لنا: اطمئنا، وكانت شامتة لأننا منذ قليل لم نسمح لها بالمسامرة معنا ورفع الكلفة. ومن دون أن تستشيرنا قالت: إنها ستنزل معنا عندما نغادر، لنوصلها في طريقنا إلىٰ محطة الحافلات؛ لأن لديها إجازة ولا أحد هنا سيذكرها في هذا اليوم، وهي تريد أن تدخل بيتها مع شروق شمس أول يوم بإجازتها، وهززنا الرأس بكل تعبير عن الطاعة والانصياع؛ من إحساسنا بصلابتها.

وعندما تركتنا لتعد حاجياتها، ونحن لم نفق بعد من المنظر المحرج الغريب، أخذت أراقب آثار الصدمة علىٰ جدتي المؤمنة بالزمن الجميل، والبشر الطيبين في الزمن الجميل، وصبر قدامىٰ النساء الطويل. من الواضح أن اليمامة البيضاء اكتشفت في ساعة ما، وربما مبكرة، أنها أبدًا ما عادت قادرة علىٰ أن تهيم بالمستشار كما حدث في اللقاء الأول، ولكن صارت تفكر في أن تعتمد عليه.

لا أدري علىٰ وجه اليقين ما جرىٰ هنا، ولكن لعلها شعرت شيئًا فشيئًا بأنه خدعها، خدعها بأن شاخ كثيرًا، وهي تريد أن تجده بعد أربع وثلاثين سنة قريبًا مما كان، رجلًا وجيهًا ناضجًا يتمتع

بصحة جيدة. ولعله شعر أيضًا شيئًا فشيئًا بأنها خدعته؛ خدعته بأن فقدت شعورها بالسعادة الغامرة بالنقلة الكبيرة التي عملها في حياتها واعتادت الأمر؛ إنه يريد أن يجدها بعد أربع وثلاثين سنة كما كانت، فتاة لا تصدق نفسها بسبب ظهوره في حياته. هذا الذي خلع سرواله ومضىٰ إلىٰ سريره، نبي الصدفة، الذي قادته جدتي إلىٰ شعبه الخائف المنعزل يحتج، ويشعر بالمرارة؛ لأن الشابة الجميلة التي وضعتها جدتي في طريقه، صارت تعامله وكأنه لم يعد يُوْحَىٰ إليه.

بعد ساعة تقريبًا من خلع المستشار لسرواله، كنا في السيارة مع بيتر الذي جاء بخبر جميل جدًّا أسعدني، وجعلني أتنفس وأبتسم: تجاوز الطفل مرحلة الخطر، وسيطر الأطباء في المستشفىٰ الاستثماري علىٰ حالته. واتفق المستشار وقت أن كان في المستشفىٰ مع الأهل علىٰ ترضية مالية مناسبة سيدفعونها، ولم تكتفِ الأم بها، بل أصرت بصوت واضح حاسم لا رجاء فيه علىٰ أن يتوسط له لنقل أوراقه من مدرسته الآيلة للسقوط، لمدرسة (. . .) الراقية التي تقع خارج المربع السكني، فيما كان الأب الخجول يبتسم لها لتسكت؛ لأنه يشعر أنها أكثرت، وأنه ليس من المناسب أن يأخذا شيئين، إلَّا أن المستشار وافق وهو يبتسم في وجهها، وكان ينظر في الوقت ذاته باستخفاف لرجلها الأبيض النحيف، الذي لا يجيد استثمار وقت الضغط، ثم ودعهما مرهقًا،

وهو يبتسم ويوصيها بزوجها، ويقول لها بنبرة أبوية، وبكلمات متقطعة: إن كلًا منكما بحاجة إلىٰ الآخر.

وتعجلتُه كي يكمل ويحكي بقية الأخبار، ففاجأني بأن صديقه لم يلمّ إلَّا بأخبار الطفل وحده، أو هكذا ادعىٰ ذلك الصديق، ولكنه وعده بأنه سيتقصىٰ ويفيده لاحقًا؛ أصبت بالإحباط الشديد، فما زلت أحمل في قلبي إشفاقًا كبيرًا علىٰ الرجل، وأرغب في أن أعرف مَنْ هو الذي جنىٰ عليه، وما زلت أتمنىٰ ألَّا يكون عميد العائلة متورطًا فيما حدث له، وخصوصًا بعد أن رأيته علىٰ الحالة المريعة، التي يبدو فيها كرجل عجوز علىٰ وشك الانهيار.

بعد قليل، شعرتُ برغبة قوية مفاجئة في أن آتي علىٰ ذكر فتاة الفيروز الحمقاء، لا أدري، ربما كنوع من التخلص مما بقي داخلي من شحنة سلبية بسببها؛ وربما لأن خوفي منها شغلني عن الشعور بالاندهاش من سلوكها، والآن بعد أن زال هذا الخوف أشعر باندهاش شديد من طريقة تعاملها غير المبررة معي. فقلت فقط: إن هناك فتاة صفة فستانها كذا وكذا كانت تنظر لي بغيظ شديد ومحيِّر في الفرح، كأنها تتوعدني وتنوي لي نية سوداء، ولم ترفع عينها عني. ولم أحكِ أنها لكزتني وسبتني، ولما استفسرت مني جدتي عنها؛ لأنها لم تلحظ شيئًا كذلك، قلت إنها كانت قريبة منا، ووصفت تصفيفة شعرها، وطريقة مضغها للبان، حتىٰ ذكرت رَبْلَة ساقها الرائعة؛ ففتحت الخادمة التي كنت أظنها نائمة عينيها

الواسعتين، وهي ما زالت تسند رأسها علىٰ المقعد بجواري، كما تفتح الدمية عينيها، وتكلمت: إنها معذورة.

هذا هو القول الغريب الذي سمعتُ الخادمة تقوله بنبرة ناعسة، الذي وقع عليّ كالصفعة. ولما لاحظت استنكاري، تنحنحتْ وابتسمت؛ فهززت رأسي أشجعها علىٰ البوح، وبداخلي ضيق من حكمها الجائر، فأعادت ما قالت: إنها معذورة. ثم استرسلتْ، كانت كأنها أرادت أن تفتح بحذر زكيبة الأسرار، فتحة صغيرة، ردًا لجميل التوصيل إلىٰ محطة الحافلات، وتعطيني منها نصيبي فقط، ولكن فوهة الزكيبة الممتلئة انفلتت منها، وما عادت قادرة علىٰ غلقها. كانت تشعر بالقلق وبالرغبة في الكلام في الوقت نفسه، وتحاول أن تداري قلقها بادعاء التماسك وعدم الخوف، ثم تبتسم لنا وتقرأ وجوهنا، كأنها تود أن تطمئن نفسها بأننا جيدون ولن نخذلها.

إنها معذورة، فهي نفسها البائعة التي باعت لنا الخاتم في محل اليمامة البيضاء، وقد تم فصلها بعد يومين من زيارتنا، لقد قالت لها السيدة المبجلة إنها عرفت من زبائن ما أن ابنها الشاب -ابن اليمامة- قد جاء للمحل واقترب منها، ووضع يده علىٰ عنقها وخدِّها وشعرها، وأنها أخذت تمسح بالمنديل الكحل الذي تلطَّخ حول عينيها. ومن الزبائن؟ هما أنتِ وهذه السيدة التي معك.

هكذا إذن فهمت البائعة؛ لأنها قالت امرأة كبيرة ومعها شابة، ولأن الزبائن الذين يشترون قلة قليلة؛ لذا تذكرتنا البائعة بسهولة، حيث إننا بالفعل دخلنا بعد خروج الشاب مباشرة، فأيقنت البائعة أننا نحن الذين قلنا عنها إنها كانت في هيام خاطف في هدوء الظهيرة، مع ابن اليمامة، وهذا لم يحدث، لم يحدث أن شاهدنا شيئًا، فقد كنا نشاهد المعروضات من خلال زجاج الواجهة عندما خرج ابنها الشاب الوسيم ذو الشعر الناعم المتطاير.

إننا لم نرَ شيئًا، حتىٰ عندما كنا في الشارع لم نلحظ أي شيء، ولم ننظر إلَّا للمعروضات، وهي نسبتْ ما عرفتْ إلينا؛ لأنها لم تشأ أن تقول شيئًا تخفيه عن الجميع: إنها تشاهد كل ما يدور في المحل الأنيق من خلال كاميرات سرية لا يعرف عنها أحد شيئًا أبدًا، لا ابنها، ولا من يبيع، إلَّا الخادِمة التي تشاهد بعض ما تشاهده سيدتها، وشاهدتنا في فيلم فيديو كما قالت ونحن داخل المحل.

لم يعرف أمر التصوير إلَّا الخادمة؛ بسبب طبيعة عملها التي تجعلها بالقرب منها، وبسبب أن سيدتها لا تقيم لها وزنًا، وبسبب أن سيدتها تحب أن تبوح وفي الوقت ذاته لا يعجبها أن تكلم نفسها، كما يفعل زوجها الذي اشترىٰ شقة أخيه الراحل، ولم يغير طلاءها القديم، هاربًا إلىٰ الأخ الأكبر الذي كان موفور التقدير والسلطان في بيته. ولم يقطع الأمل، فصنع سلالم داخلية، لعلها

تعود يومًا إليه نفس الفتاة الشاكرة التي كانت. وهو يقبع أغلب وقته في الطابق السفلي يروح ويجيء بين الشوق والاحتجاج، حيث يمكنه في طابقه أن يمنّ عليها بمفرده ويتحسر علىٰ سوء كيلتها، ويعدد مزاياه، ويشتكي إلىٰ صورة حماته الراحلة من تقصير بنتها، ويطلب منها بكبرياء مزيفة لرجل شبه منهار، أن تعيدها إلىٰ عقلها، وإلَّا سيضطر لأن يرسلها إلىٰ بيت الأسرة بغير حقيبة، كما خرجت منه بغير حقيبة، بينما يصل صوته هذا مثل الهمهمة للطابق العلوي الذي تنفرد فيه الأم بوحيدها، ولا يحركها إليه إلَّا الواجب والعشرة، والرعاية الصحية، وقلما نزلا له أو صعد إليهما؛ ليجلسوا جميعًا جلسة ودية لا تنتهي بغير سوء فهم واختلاف.

لا تحب اليمامة أن تكلم نفسها مثله، ولا تحب كذلك أن تكشف لأصدقائها مناحي وجعها وضعفها، تحب أن تبدو المرأة المبتسمة الهادئة، التي تعيش في سلام أبدي؛ فتكلم هذه الخادمة التي تقدم لها خدمة عظيمة بأن تبدو لسيدتها غبية وصبورة، وغير قادرة علىٰ الربط.

اليمامة البيضاء تضع الكاميرات الدقيقة لتحقق لنفسها متعة سرية غريبة، ومريضة، ومخجلة، هي السبب في فتحها لمحل علىٰ هذا المستوىٰ في ذلك الحي الشعبي، إنها تتمتع بمشاهدة العرسان البسطاء الشبان، وقد دخلوا المحل ليشتروا الشبكة، ويحدوهم الأمل في أن يجدوا أشياء جميلة ومناسبة في هذا المحل الفخم

الديكورات، يعرفون سعر القطعة هذه من البائعة، ثم هذه، غالية جدًّا أيضًا، فماذا عن تلك؟ إلىٰ أن يتيقنوا أنه لا شيء هنا يمكنهم شراؤه، ولا قطعة واحدة، لا يمكنهم شراء شيء من هنا إلَّا العلب القطيفة الفارغة؛ فيتضح علىٰ ملامحهم الذهول والصدمة والمسكنة والتضاؤل، ويخرجون من المحل هم وأهاليهم منحنين، وخزايا كأنهم تعرضوا للطرد، وأقفاؤهم ساخنة.

إنها تشعر بسرور عجيب وهي تشاهد هذه الشرائط، وتعتني بها جدًّا، وتدمج فيها موسيقىٰ حزينة مناسبة، بل وثمة شريط كلما شعرت بالكآبة لاذت إليه، تشاهده إلىٰ آخره؛ فتشعر بالخفة والرضا، وتتصالح مع أيامها وزمانها الهارب، جمعتْ فيه مشاهد للعرائس الشابات اللواتي وصل بهن الحال والتأثر لدرجة نزول دموعهن؛ بسبب العجز عن شراء المجوهرات التي أعجبتهن وتعلقت بها أعينهن، وقد اشتعلت فيهن غريزة الاقتناء، تلك الدموع التي تربك العريس الشاب، وتشعره بالخفة والهشاشة والحرج. إنها تشاهد ببهجة مريضة آثار الحرمان الذي تعاني منه شابة ارتبطت بشاب بسيط قريب من عمرها، تفرح نفسها بما حققته بموافقتها السريعة والمحسومة علىٰ الارتباط بالمستشار، ولكي تحتقر الفارق الكبير بينهما في السن، ولكي تؤكد صواب قرارها أن تعتمد عليه؛ لم تجد بدًّا من احتقار الزيجات بين متقاربين في العمر من خلال هذه الشرائط.

حكت الخادمة ما حكت، وهي تستوعب كل ما تشاهد كأي إنسان ناضج وفاهم، بشكل لا يوحي به منظرها البسيط، حتىٰ وجدت نفسها قد فرغت دفعة واحدة من حكاية سيدتها المريضة المنهكة النفس التي تغزل لنفسها ثوب رضا من أحزان المعسرين؛ فشعرتْ باليأس والورطة وذلك الاستهتار الحزين الذي يشعر به من انفلتت الأمور منه، ونحن شعرنا بأنه يمكن لنا أن نعرف أي شيء بغير إلحاح، وأنها ستحكي قصة الرجل، أفضل من أي أحد، وربما حتىٰ من الرجل نفسه؛ إننا لن نتودد إليها كي تحكي، بل هي التي تحكي وتتودد أيضًا.

كانت اليمامة تخطط لابنها الوحيد الذي أنجبته بعد عشر سنوات من الزواج، بعد أن سقط لها ثلاثة أجنة، والذي تحبه حبًا جنونيًا، أن يدير وحده مصنع البلاط الصغير الذي يملكه والده، وقد رسمت علىٰ أن يكون خالصًا له من بعد وفاة والده، الذي ما زال يشعر أنه شاب صغير غير ناضج ولا يتحمل المسئولية، ويثير استياءه بشدة إعجابه بنفسه، وتخبطه في علاقات عاطفية لا تنتهي، لم يملك كأب في مواجهته هذا التخبط إلَّا أن يضع له خطًا أحمر، وهو ألَّا يقترب من بنات العائلة وكذلك بنات المنطقة.

والأم التي كانت ترغب أن يقتحم ابنها الحياة العملية مديرًا ويودع سفاسف الأمور، والتي تحاول أن تخدع زوجها بشأن سلوك ابنها، وكانت تمرر له بالكذب أخبار تعقله وسيره علىٰ الجادة،

اضطرت لأن تطرد الفتاة البائعة؛ حتىٰ لا يلحظ المارة شيئًا وتفوح الرائحة، ويصل الخبر للمستشار فتزيد المسافة بينه وبين ابنه، ويسقطه من أي حساب للرجال الذين يمكنه الاعتماد عليهم؛ فيستقر الأمر بالشاب كإنسان عاطل منعَّم يعيش علىٰ إيرادات لم يجتهد فيها، وهذا كان قمة رعبها من الأيام.

كانت البنت تبكي بين يدي اليمامة، في شقتها، حتىٰ تورمت عيناها، ربما بسبب الآمال التي شردت معها عندما تخيلت نفسها زوجة لهذا الشاب الوسيم، بعد أن شعرت بأنها ظفرت به، تعتني بصحته، وتنظم وجباته، وتحقنه حقن الأنسولين، ولا تثير غضبه أبدًا.

ولكن اليمامة البيضاء نفرت من نوعها، نوع البنت الفقيرة الجاذبة، التي تستطيع ببساطتها ولينها أن تأسر الرجل الغني، ولم ترغب في أن ينتهي الأمر بابنها الوسيم المريض وقد وقع في نهاية الأمر في هوىٰ هذه الفتاة التي تراهن علىٰ ما يبدو علىٰ قدرتها المهولة كشابة صغيرة علىٰ تحمل طباعه، فيتزوج من فتاة بسيطة تعمل عندها.

قالت لها في نهاية حديثهما: إن ابني يلعب بكِ، وهو ليس لديه في تعامله مع البنات إلا فضيلة واحدة، وهو أنه لا يحوم حول فتاة لم تشجعه. وأنا سأحفظك من شرِّه، ومن شرِّ نفسكِ، بأن أبعدك من أمامه، وكل ما عليك هو أن تقولي لأهلك بأنكِ مللت

من العمل عندنا، وستبحثين عن عمل آخر، ولكي لا يشعروا بوسوسة من تركك العمل بغتة، أدعوكم لحضور الفرح القادم.

ووبخت ابنها توبيخًا شديدًا، وحكت له أنه يجب أن يفيق ويعرف قيمة الظروف الطيبة التي نشأ فيها، وأخذت تحكي له عن ظروف حياتها الصعبة في الماضي، التي سمعها منها من قبل كثيرًا؛ فتحجج لها بلا مبالاة وبراءة بأنه في الرابعة والعشرين، ولا يزال شابًا يحق له بعض الهفوات؛ فبكت وهي قليلًا ما تنهار وتبكي، وقالت له: أفقْ، إن العمر يهرب بسرعة ستعرفها يومًا ما. وذكَّرته بأنه وحيدها، وأنه قد يكون مسئولًا عن نفسه وعنها بعد موت أبيه المريض في أي لحظة، وقالت له تستحلفه وهي تعصر ساعديه: إنه يجب أن يقاوم السكريَّ، وأن يقاوم الفشل؛ لأنه لا بدَّ أن يعيش، ولا بدَّ أن ينجح، وأنه لم يعد ينفع أن يقال عنه «ابن أمه» في هذه العائلة التي يخرج أبناؤها من بطون أمهاتهم يسعون للمال، وعندما يشبُّون ويبدؤون في البحث عن عرائس يفتشون عمن يتقوون بنسبهم من أهل المراكز والمناصب؛ وأنت كل ما أملك في هذه الحياة، وفي وجهك الجميل أودعت عمري الفائت، ولم يبقَ لي شيء من الحب إلَّا لك على البر والعقوق، ولو كان للإنسان أن يهب عمره لغيره لوهبتك عمري كله ومِتُّ على الفور بين يديك.

احتضنها وربَّت عليها وبكى، وأقسم لها أنه سيتغير، وأنه لن يجعلها تبتئس بتصرفاته مرة ثانية، وأنه سيتولى أمر المصنع في حياة

أبيه كما تريد؛ حتىٰ تشعر أنها أنجبت رجلًا حقًّا، فابتسمت ومسحت دموعها لتطمئنه، وقالت: إنها بخير؛ حتىٰ لا يعلو عليه السكري.

واستلمت أذن زوجها، يومًا وراء يوم، حتىٰ قال لمساعده الطيب الجاد وبغير أي تمهيد، حتىٰ يخلص من الإلحاح اليومي: إن ابنه الصغير سيأتي ليدير المصنع بنفسه، وعليه أن يقدم له من الولاء ما قدم له هو شخصيًا، وعليه أن يساعده ويصقله ويعرفه علىٰ جميع خبايا العمل. لكن الرجل المخلص فاجأه بأن قال: إنه لا يستطيع أن يعمل تحت إمرته، ويمكنه أن يترك العمل، ويفسح مكانًا للشاب.

ولم يرضَ أن يفصح أكثر. ولكن المستشار فهم أسباب الرجل التي لم يشأ أن ينطق بها؛ فهو يعرف أن ابنه مدلل ومتعنت ومتعجرف، ومرضه يجعله أحيانًا سيئ الطباع، وهو لا يحب المصنع ولا يحب أن يأتيه، وإن جاءه زائرًا عامل مَنْ فيه علىٰ حسب درجة تملقهم له في أثناء الزيارة، واليوم الذي يأتي به إلىٰ المصنع يترك وراءه وهو مبتهج كوميديا مؤلمة ينسىٰ فيها الناس حيثياتهم، حينما يرفع بعض مَنْ لا شأن لهم، ويحط من بعض الموظفين المهمين في فوضىٰ التقريب والإبعاد.

وهو يعرف أن ابنه لا يحب هذا الرجل الجاد علىٰ وجه الخصوص؛ لأنه لا يتملقه عندما يأتي زائرًا، وفي الوقت ذاته كان

يتجنب مضايقته لمعرفته بقدره عند أبيه، ولا يستبعد الأب من ابنه، عندما يتولىٰ مقاليد المصنع، ويبدأ هو في التنائي وقد أخذ ضعف الذاكرة يمضي به بعيدًا، أن لن يحترم خبرة الرجل، ويعمل علىٰ إذلاله وكسر إرادته أمام الآخرين.

واحتار المستشار، بين إلحاح زوجته الذي وصل إلىٰ درجة الاستماتة، ورفض مساعده الذي يخشىٰ من أن يتحكم فيه أمام العمال شاب صغير أجوف، وهو رفضٌ وصل إلىٰ مستوىٰ القطعية، وحسبها المستشار وهو في وهن الشيخوخة، وتراجع خوفًا من أن يخسر خبرة الرجل الأمين الفاهم الذي يعتمد عليه اعتمادًا كاملًا بعد أن ضعفت قدرته علىٰ التركيز والمتابعة، واختار الحل الذي يلجأ إليه مَنْ يشعر بالضعف، ولم يعد لديه قوة للجدل والضغط، وهو أن يعد زوجته بأن هذا سيحدث قريبًا، قريبًا جدًّا، بعد ترتيبات معينة في صالح ولده تسهِّل عليه الأمر تمامًا، ولم يصارحها بأن مساعده قد رفض رفضًا نهائيًا، وأنه أذعن لمساعده وأبقاه علىٰ وضعه، وأبقىٰ ابنه خارج المصنع.

وفي الزيارة التالية للمصنع، وشَىٰ عامل ثرثار من غير المهرة من العمال، لابن المستشار بالحوار الذي سمعه بين أبيه والمدير الفعلي للمصنع منذ أيام قليلة؛ فرجع يأكله الغضب، وانفرد بأمه مغتاظًا مشتكيًا إليها من أن يمنعه من ملكه أَجِيرٌ يعمل عندهم، ومشتكيًا إليها من أبيه الذي تراجع أمام الرجل واستسلم له،

وضرب زهرية بيده من الغيظ فتحطمت، وخرج عن شعوره ودق رأسه في الحائط وعلا عليه السكري؛ فأخذت أمه تهدئ فيه وهي تبكي وتصرخ، حتىٰ هدأ بعد أن كادت تجن من خوفها عليه. وجلسا علىٰ حرف السرير وهما يتنفسان بصعوبة، كل منهما يتفقَّد الآخر، بنظرات ذاهلة كائنين نجيا وحدهما من كارثة، وتحت أرجلهما حتات المزهرية، وهي تطمئنه وتعده بأن حقه عندها، وأنه بحق ما سقاهما من حنظل في هذه الساعة هو وسيده الخائر ستصرفه كما لو كان قاذورة، وليجعل سيده ينفعه إن استطاع.

لقد حقدتْ علىٰ ذلك الرجل حقدًا أسود، وانكسرت عنده قارورة الذاكرة المسمومة، لتلك الشابة التي كانت في زمن ما لا تهتم كثيرًا، وكانت تبتسم لتخفي إحساسها بالمرارة، وتنظر إلىٰ كل وضع سيئ علىٰ أنه مرحلة ستنتهي ولن يبقىٰ لها أثر. ورأت وهي تمسح العرق من جبهة ابنها، الذي تمدد علىٰ السرير وتنظر في وجهه الوسيم المحزون، الذي أنهكه السكر مبكرًا ويكاد يقضي عليه، أنه ولَّىٰ منذ زمن بعيد عهد الصبر علىٰ تبجح الناس وابتلاع الإهانات، وشعرت بحاجة شديدة وعاجلة إلىٰ الانتصار علىٰ ذلك الرجل، من أجل ابنها الذي يبتسم لها ابتسامة أكلها الإرهاق، ومن أجل الأيام القديمة، أيام الفقر واليتم والسير بجنب الحائط. وهكذا كُتِبَ عليه أن يخرج فيه كل ما بات فيها من أسىٰ وجراح لا تندمل، فعزمت علىٰ التخلص منه بطريقة قاضية بغير جولات؛

حتىٰ يشعر أنه لا وزن له، بتلفيق تهمة تلاعب، مستغلة صلة ابنها الوثيقة بضابط شرطة صغير.

سيشعر بالألم الشديد للصفعة المباغتة، وبالعجز والضعف والهوان، ويعرف مقامه، ويبيت ليلة سيئة في الحجز، يظن من سوئها وما يذوقه فيها أنه قد يُنسَىٰ هناك، ويفكر في العتمة في أن الحياة في الخارج لم تتأثر بغيابه، حتىٰ داخل المصنع نفسه، ثم يقبل أن يخرج في اليوم التالي، وهو لديه إحساس شديد بالفرح والتفاهة، مباشرة إلىٰ محطة القطار عائدًا إلىٰ بلدته من دون أن ينظر خلفه.

خطة واقعية ومنجزة، فعندما يمر نهار الغد من دون أن يذهب إلىٰ الرجل منقذه العجوز، الذي خلع سرواله في بهو الشقة ومضىٰ للنوم وهو يتشكّىٰ، غالبًا ما سيشعر الرجل باليأس والخوف من أن يضيع تحت أقدام الأكابر، وسيعقل ويعترف بالهزيمة المنكرة؛ لينتهي الأمر كما أرادت، وينتصر ابنها الذي تعمل بروح هستيرية علىٰ أن يدخل طور الرجولة الناضجة.

وقد غيرت اليمامة موعد تنفيذ ضربتها مستفيدة من الحادث الذي وقع بالفرح، وشجعت زوجها علىٰ الذهاب مع الطفل المصاب للمستشفىٰ، بعد أن رفعت معنوياته المنخفضة، وأمسكت يده أمام السيارة التي ستتحرك بهم، ووهبته نظرة منبهرة كتلك النظرة التي كان يراها منذ أربع وثلاثين سنة، وقالت له: إنه كبير

العائلة، وعليه ألَّا يعود إلَّا بعد أن ينهي هذا الأمر علىٰ خير وجه، وإنه لا أحد هنا له أن يحل ويعقد وأنفاسه في الدنيا؛ ففرح وأصر علىٰ الذهاب بنفسه، لقد كانت تعرف تمامًا ماذا ينقص الرجل، ويجعله يلف ويدور حول نفسه في الطابق السفلي، وقد جادت بما ينقصه أخيرًا حتىٰ تفرغ لها الأجواء وتصير الأمور إلىٰ منتهاها كما أرادت.

بعد أن سمعتُ كل هذا، أخذت أدقق في وجه جدتي التي كانت تتكلم في شقة المستشار بإيمان شديد بما تقول، مثلما يتكلم الكبار دائمًا، عندما كانت متأكدة تمامًا من أن ذلك الرجل المُهَان هو خروف العائلة؛ فوجدتُ وجهها ممتعضًا، ولكنه متماسك كوجه الكبار، لا يظهر عليه أي شعور بالحرج من ثبوت خطأ وجهة النظر التي كانت تبدو أكيدة.

ثبت أن كل ما قالته بثقة شديدة وهي تدخن سيجارة النعناع، هو غير صحيح بالمرة؛ فالبطل لم يكن في أحسن حالاته بسبب الصدمة وعدم التوقع، بسبب الظلم الذي يتعرض له، وليس بسبب التضحية. كانت هذه هي الحقيقة المؤسفة التي عرفناها، قصة ظلم وافتراء هي في الواقع أسوأ من التي خمنَّاها، وبطل مأساوي أعقل وأشرف من الذي رسمناه في خيالنا.

لقد سيطر عليَّ شعور بالخمود والوجع فور سماعي لهذه القصة المؤسفة لبطلي الذي أبكاني، الذي لم يفعل شيئًا أكثر من

ممارسة حقه في رفض العمل مع شخص ما، واستمر في مكانه وهو لا يشعر بالخطر، ولا يتوقع المصيبة التي أُعدتْ له، ولا يتوقع أن يمسك بتلابيبه عمال صغار يعملون تحت إدارته. لقد ازددتُ شفقة علىٰ الرجل بالطبع، وازددتُ احترامًا له، وازددت حسرة علىٰ إيمانه بسيده الذي يصارع خيالات الشيخوخة في حرب خاسرة.

لقد كَوَّنْتُ من أجل بطلي هذا مجتمعًا مسيحيًا مغلقًا يؤمن إيمانًا لا يتزعزع بأن ما وقع عليه من إيذاء يرتبط تمامًا بما حدث قبل ذلك بدقائق من إصابة الطفل المتواري بالشجرة بطلق ناري، والسبب هو أنني آمنت بذلك، وجدتي أكدت إيماني، بلهجة الكبار الحاسمة، وكان هناك انسجام خادع بين الحدثين المتتاليين الواقعين في المكان نفسه، ولن يكون بوسعي تصحيح المعلومة للآخرين في الجروب، فأنا لم أعد الآن أملك أكذوبتي، وسأطلب من أخي أن يترك الأمور كما هي ولا يصحح شيئًا؛ فلنا وحدنا ما سمعنا الآن، ولهم ما كتبتُ، ولا شيء يجعل البطل حقيقيًا أكثر من التأثير والإعجاب، أما الحقيقة نفسها فتأتي في مرتبة متأخرة.

هذا ما حدث، فيما كنا نذهب بعيدًا في تحليلاتنا أنا وجدتي ونحن فوق الرجل الذي صُفِع علىٰ قفاه وألقي بالعربة، ولم نفكر علىٰ الإطلاق في أنه قد لا يكون هناك أي علاقة بين الحدثين اللذين يفصلها وقت وجيز جدًا ووقعا علىٰ المسرح نفسه؛ كنا

معذورتين، كان المشهد خادعًا لمن ليس عنده خلفية عما يدور هنا، وعنده في الوقت ذاته عاطفة جياشة، هذا هو الأمر بكل بساطة، وقد كنت محظوظة لأني عرفت، وكان يمكن لي البقاء بهذه القصة الواهمة عما جرىٰ، إلىٰ أن أحكيها لحفيدتي في زمن المشيب، وبكل بساطة، ومهما اتسع النطاق المسيحي الواقعي الذي تؤجج مشاعره صورة المسيح علىٰ الصليب، لا يوجد ما يمنع أن يكون استنتاج علاقة بين حادثة أكل آدم من الشجرة، تلك الحادثة النائية تمامًا من ناحية الزمان والمكان، وبين حادثة الصلب، هو لا شيء، مثل ما استنتجته أنا وروَّجت له في نطاق مسيحي افتراضي مدعومًا بصورة تحت تأثير حادثتين ملتصقتين شاهدتهما.

ومما يدعم أن يكون هذا الاستنتاج أفدح أنواع اللاشيء هو أن آخذ باعتباري أمرًا في غاية البساطة، وهو أن المسيح لم يعلم تلاميذه بنفسه من ضمن الأشياء الجميلة التي علمهم إياها أي رابط بين مجد وجوده وخطيئة آدم عندما أكل من الشجرة، لم يقم بهذا ولا مرة. نعم ولا مرة، والعهد الجديد من أوله لآخره لا يشمل نطق المسيح بجملة واحدة عن أكل آدم من الشجرة، بل إن العهد الجديد من أوله لآخره لا يشمل نطق المسيح اسم آدم علىٰ الإطلاق. نعم، لم يذكره، وقد كان من المناسب تمامًا أن يتكلم المسيح في هذا الأمر، أمر الفداء، أكثر من مرة.

إن عدم كلام المسيح عن العقيدة الأهم «عقيدة الفداء» بنفسه بشكل واضح، ولو مرة واحدة، يجعلني أعذر نفسي إن خمَّنت أنَّ ما وصلنا من أخبار عظيمة عن الفداء ربما يكون مغالطة هائلة، تولدتْ عن انفعال وتأجج عاطفي، لشخصيات كان قد أصابها الاضطراب، وشعرتْ بمزيج من الخوف والإهانة الشخصية، ورغبت في أن تجابه نقصها ببسالة، وأن تفتش بشكل عصبي عن تعويضات سخية تحفظ الروح من الشرخ.

لا أستبعد أن يكون رجل ما واسع الخيال، وزاد انتظاره المهموم لعودة المسيح اتساع خياله، واشتاقت نفسه لشيء آتٍ بعد النهاية الكسيرة العليلة، ولم يسلِّم بأن الأمر انتهىٰ ولا شيء يذكر بعد دق المسامير والنخس بالحربة، ولم يتقبَّل أن الملك لن يسحق عظام من أهانوه ونكَّلوا به؛ فانفعلت نفسه المؤمنة، وفتشت بعصبية عن تعويض يحفظ روحه وروح من حوله من الشرخ، وقد أصابها الجزع من أن ينصرف أفراد الجماعة الدينية كل إلىٰ حال سبيله، فتمنَّىٰ، ونطق بما تمنَّىٰ، وهو مؤمن بما يتمنىٰ، فبشَّر بنهاية موازية للفاجعة، تتصف بالجلال والسمو، ابتلع بها زمن البشر كله، وصنع فرحته بنفسه من عقيدة الفداء والخلاص. جعل من الحدث الذي أصابه وأصحابه بالكآبة -حدث الصلب- فرح الوجود الأكبر. ليس لأن هذا ما قاله المسيح المعلم الذي غاب؛ بل لأن هذا ما يحتاج إليه التلامذة الذين افتقدوه.

ظهرت الإضاءة الساطعة لمحطة الحافلات الحضارية، فانقطع استرسال أفكاري المؤلمة علىٰ إشراق ملامح الخادمة الصغيرة بجانبي، فقد تهلل وجهها كوجه الحجاج الصابرين عند الوصول أخيرًا للعتبات المقدسة، حتىٰ إني شعرت أنها من الهيام والفرحة ستلقي بنفسها من السيارة، وأخذت تلف وتدور وهي قريبة من أذني تتلجلج، وهي ترجو قبل الوداع ألّا نضرها مع سيدتها، ولا نحكي لها أي شيء، ثم فوجئنا بصوت جدتي الجزعة التي اكتشفتْ عند المحطة، ولسوء حظ الخادمة، أنها نسيت حقيبة يدها في شقة المستشار. وكان منظر الخادمة الذكية لطيفًا، وهي تفتح الباب ببطء وتنزل ببطء مثل حركات الكائنات الكرتونية المبهجة؛ إذ أدركت بذكائها أننا لن نستغني عنها في رحلة العودة، فمسكناها وساقاها الاثنتان خارج السيارة، ودسّت جدتي في يدها مائة جنيه، وقالت فقط بصوت خفيض وواثق: عودي، فعادت الفتاة للسيارة بكل نشاط.

وعندما وصلنا عند البيت بالسيارة المسرعة، وكانت الأجواء هادئة تمامًا في الشارع الذي تجرَّد من مصابيحه التي أُطْفِئَتْ، وفرغت الشجرة من صلاتها لمّا نزعوا عنها الخراطيم الخضراء، ولم يبقَ تحتها سوىٰ ذكرىٰ جافة من دم الطفل، وعاد الشارع لما كان عليه كأنه لم يكن ثمة فرح، طارت الخادمة علىٰ السلالم ككائن كرتوني عجول، وغابت بعض الوقت، ثم عادت بالحقيبة ورمتها علىٰ حجر جدتي، وركبت بسرعة.

وقبل أن نصل إلىٰ محطة الحافلات، تذكرتُ أنني لن أرىٰ هؤلاء الناس مرة أخرىٰ، ولن أرىٰ نظرة اليمامة الغريبة؛ فغلبني الفضول لمعرفة الأحوال الأخيرة لبعض جرحىٰ العالم الذي فلتَ منا غير مأسوف عليه، إن كان ثمة جديد؛ فسألتُ الخادمة: إن كان سيدها يغط في نومه الآن مجهدًا؟ وإن كانت سيدتها عادت مشدودة الأعصاب تنتظر تمام الأمور كما أرادت؟

فأخبرتنا أنها صعدت فوجدته علىٰ غير ما توقعتُ، قد استحم وخرج يرش العطر علىٰ جسده، وأخذ حبة برشام، وقال لها، وهو يبتسم: قبل أن تأخذي الحقيبة وتذهبي، اصعدي بهدوء وانظري إن كانت سيدتك مستيقظة أم نائمة، وأخبريني عن اللون الذي ترتدي، وانظري أيضًا إن كان سيدك نائمًا في سريره أم ساهرًا مع أصحابه كالعادة. وعادت إليه بعد قليل بخطواتها الحذرة كخطوات اللصوص، وأخبرته أن سيدها خارج البيت، وأن اليمامة نامت علىٰ نفسها وهي تشاهد التلفزيون، وما زالت ترتدي الفستان الشيفون التوتي؛ فهز رأسه رائق المزاج وقال بصوته العريض وبإعجاب مسرحي فيه مسحة من الجنون: الشيفون التوتي.. إنه رائع عليها. وفتح خزانة الملابس وأخذ يقلب في الإيشاربات المعلقة بعناية وهو يترنم، ويمسك كل إيشارب ويستحضر لون الفستان في خياله، ويوافق علىٰ هذا ثم يرده، ويلفظ ذلك تمامًا ولا يفكر فيه، ويحتار بين اثنين ويطيل النظر فيهما، ثم رضي عن

ذي اللون الأحمر المشرق، الذي كان به بالصدفة شكل ثمار أو أزهار صغيرة بلون التوت، وأخذ نفس رضا عميقًا، وتأوه من الشعور بالطرب، وقال لنفسه: إن هذا مناسب جدًّا. ثم توجه بكلامه للخادمة، وهو يبتسم في وجهها: احملي الحقيبة، وعودي الآن، لهؤلاء الذين ذهبتِ معهم، صحبتك السلامة. فأخذت الحقيبة، وتصنعتْ أنها تفتش عن شيء، وراقبته وهو يصعد السلالم الداخلية، التي قليلًا ما يصعدها، وقليلًا ما يهل عليه وجه زوجته نازلًا منها، كان يصعد برضا وهدوء، يفوح منه عطر سنينه الشجيُّ الكريم، كرائحة المحراب العتيق، يرتدي روبه ذا اللون الأبيض الشبحي، وقد غطَّىٰ رأسه بغطائه، وعليه فضول روح رجل مات معذبًا في قبو، بعد تباريح طويلة، تصعد تلك الروح وقد استبد بها من طول الصلة شوق غامض لأن ترىٰ وجه الجلَّاد.

تبادلنا النظرات الحائرة أنا وجدتي، فنحن لا نعرف علىٰ وجه اليقين إن كان قد دبَّ فيه هذا الليل في عتمة البيت شيء جليل من الحب والشغف، والشعور العميق بالعِشرة، ومكرَ به في العتمة والأشجان الساهرة وأخذه علىٰ غرَّة، حتىٰ أفقده إحساسه بالزمن؛ فتذكر جمال وجهها وفستانها، وبساطتها الأولىٰ، وانبهارها به، وبهاءه القديم، فصعد يغازلها ويهندمها، ويقترب منها ويسعدها بأي حيلة، بأي شيء قد يعلق في الدلو الذي يرميه كل حين، بكل بؤس، في بئر عجزه، أم أن الرجل الذي كان يحكم بلف حبل

الشنق حول رقبة إنسان بغير أي حيرة وتردد، قد أصدر حكمًا عليها، هو من شدته وعدم تناسبه مع ذنبها يمكن أن يقال عنه إنه خيالي؟